القسم الأول
الدعوة إلى العلم في الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

■ 1 ■

الإسلام دين العلم

الإسلام دين العلم. ومنذ بدايته كان الإسلام يحث وبقوة على العلم وطلب العلم. فأول الأوامر الإلهية التي تلقاها الرسول الكريم ﷺ كان الأمر بالقراءة «اقرأ». ولهذه البداية مدلول كبير وعظيم على أن الدين الجديد هو دين علم جاء ليبدد ظلمة الجهل التي كان يعيش فيها الإنسان، ولينير الطريق أمام البشرية لتتدبر وتتفكر وتنظر في ملكوت السموات والأرض، وتمعن النظر في معرفة الكون والكائنات، وتبني على أساس من العلم حضارة فيها يتجلى إبداع الفكر الإنساني الذي وهبه الله للإنسان ليعلو إلى المرتبة التي أرادها الخالق له.

وتتتابع الآيات القرآنية الحكيمة التي ترفع من شأن العلم وتعظّم العلماء، وتدعو الناس إلى الأخذ بأسباب العلم. وجاءت بعد ذلك الأحاديث الشريفة التي تؤيد دعوة القرآن الكريم للعلم. وتحثّ أتباع الإسلام على طلبه مهما كانت المصاعب التي يمكن للإنسان أن يتحملها في سبيل العلم. والتاريخ شاهد على ما كان يقوم به المسلمون في سبيل العلم وطلبه «فما إنْ استقرت الدولة العربية الإسلامية، حتى أخذ المسلمون ينهلون من موارد العلم وترجمة الكتب الإغريقية والسريانية والفارسية، ونقلوا الذخائر العلمية إلى اللغة العربية، وأنشئت المدارس والمكتبات ودور العلم. . وتنافس الخلفاء والأمراء والحكام في تقدير العلم والعلماء والإنفاق بسخاء على دور العلم ومكتباته، والإغداق على العلماء ورعايتهم»[1].

---

(1) عبد الحليم منتصر. تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه. ط3. القاهرة: دار المعارف، 1969، ص 5.

وقد نهض المجتمع الإسلامي في القرون الثمانية الأولى للإسلام لطلب العلم، فكان كل فرد قادر على طلب العلم يطلبه من أي مكان قريب أو بعيد، ويتحمل في طلبه المشاق والمصاعب وهو راضي البال هانئ النفس؛ لأنه يطلب شيئاً دعا إليه الله ورسوله. وفي تراث الأمة الإسلامية المجيدة آلاف القصص والحكايات التي تصور كيف كان المسلمون يطلبون العلم من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه ومن مغربه إلى مشرقة.

فكانت الرحلة إلى تلقي العلم على يد عالم جليل تأخذ عاماً أو بعض عام أو ربما أكثر في بعض الأحيان، وطالب العلم لا يبالي بما يجده من صعوبات في ذلك.

ذلك كله كان تنفيذاً لأوامر القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو إلى طلب العلم وتعليمه والعمل به، حتى «غدا الطالب أو العالم المسلم ينطلق إلى العلم وفي رحابه، بهمةٍ عالية ونشاط كبير وشغف بالعلم لا ينتهي. يتحمل في سبيله كل المتاعب. لا يدعُ فرصة إلاَّ ويزداد فيها علماً. مما يدل على قوة الدافع وعمقه وحقيقته واتساع أفق الهدف وإشراقه»[1].

وكانت نتيجة ذلك أن حفلت البلاد الإسلامية جميعها وفي كل أجزائها بنشاط علمي كبير في كل مجالات العلوم؛ دينية ودنيوية، فكان التقدم العلمي الذي استمر قروناً طويلة[2]. وكانت الحضارة الإسلامية الزاهرة التي أثَّرت في تاريخ البشرية تأثيراً لم تؤثره أي حضارة قبلها أو معاصرة لها، وكان دورها عظيماً وقوياً في رسم معالم حضارة الإنسان الحديثة.

إن أكبر الأدلة وأعظمها على الدعوة إلى العلم والتعلم في الإسلام هي آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، ثم الأقوال المأثورة عن كبار الحكماء والعلماء

---

(1) كريم عجيل حسين. الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1976، ص 155 (رسالة ماجستير).

(2) نفس المصدر.

والأدباء والحكام. ولا نريد أن نطيل في هذا المجال فحسبنا هذه الأدلة التي تغني عن التطويل والإفاضة.

أولاً. القرآن الكريم: قال الله تعالى:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾[1].

﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾[2].

﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴾[3].

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[4].

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾[5].

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾[6].

﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[7].

﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[8].

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[9].

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[10].

---

(1) سورة العلق، آية 1 ـ 5.
(2) سورة القلم، آية 1.
(3) سورة الطور، آية 1 ـ 2.
(4) سورة آل عمران، آية 18.
(5) سورة العنكبوت، آية 43.
(6) سورة المجادلة، آية 11.
(7) سورة الأنبياء، آية 7.
(8) سورة فاطر، آية 28.
(9) سورة الإسراء، آية 85.
(10) سورة طه، آية 111.

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[1].

وبالإضافة إلى هذه الآيات البينات، هناك عشرات الآيات التي تدعو الإنسان، والإنسان المسلم خاصة، إلى التدبر والتفكير وإعمال العقل في ملكوت الله ومخلوقاته. وهي جميعها دعوة إلى اتخاذ العلم وسيلة وطريقاً إلى المعرفة والفهم والإدراك والوعي بحقائق الأشياء.

ثانياً. الحديث الشريف: قال ﷺ:

- «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».
- «طلب العلم فريضة على كل مسلم».
- «من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع».
- «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت».
- «لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة».
- «باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها».
- «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة، فقيل يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهل ينفع القرآن إلاَّ بالعلم».
- «خيار أمتي علماؤها، وخيار علمائها فقهاؤها» . .
- «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

---

(1) سورة النساء، آية 112.

ـ «أقرب الناس إلى درجات النبوة أهل العلم والجهاد؛ أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل».

ـ «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء».

ـ «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء».

ـ «من طلب العلم لغير الله، لم يخرج من الدنيا حتى يأتي عليه العلم فيكون لله؛ ومن طلب العلم لله، فهو كالصائم نهاره، والقائم ليله؛ وإن باباً من العلم يتعلمه الرجل خير له من أن يكون أبو قبيس (اسم جبلٍ) ذهباً له فأنفقه في سبيل الله».

ـ «من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صدّيقاً».

ـ «من عَلِمَ علماً فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار».

ثالثاً. الأقوال المأثورة:

قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ـ «العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق. محبة العلم دين يدان به، تكسب المرء الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته. ومنفعة المال تزول بزواله، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه.. مات خُزّان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر».

ـ «العالم أفضل من الصائم القائم المساجد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلاَّ خلف منه».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو من شيء حقير فرح، ومن دفع عنه حزن».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «خُيرّ سليمان بن داود عليهما السلام، بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطى المال والملك معه».

وقال أبو الأسود الدؤلي: «ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك».

وقال بعض الحكماء: «القلب ميت، وحياته بالعلم؛ والعلم ميت وحياته بالطلب، والطلب ضعيف، وقوته بالمدارسة، ومحتجب بعد المدارسة، وإظهاره بالمناظرة، وإذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم ونتاجه بالعمل، فإذا زوج العلم بالعمل، توالد وتناسل ملكاً أبدياً لا آخر له»[1].

وقال أحد الحكماء أيضاً: «إذا مات العالم، بكاه الحوت في الماء، والطير في الهواء، ويفقد وجهه، ولا ينسى ذكره»[2].

ونختتم هذا الفصل القصير عن الإسلام والدعوة إلى العلم بالشعر، والشعر الحديث. وهذه بعض أبيات قالها شاعر العربية معروف الرصافي:

هل العلم في الإسلام إلاَّ فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلُّمِ

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نُوَّمِ

وحلت له الأيام عند قيامه ... حُباها وأبدت منظر المتبسمِ

فأشرق نور العلم من حجراته ... على وجه عصر بالجهالة مُظلِمِ

ودك حصون الجاهلية بالهدى ... وقوض أطناب الضلال المخيِّمِ

وأنشط بالعلم العزائم وابتنى ... لأهليهِ مجداً ليس بالمتهدِّمِ

وأطلق أذهان الورى من قيودها ... فطارت بأفكار على المجد حُوَّمِ

---

(1) طاش كبرى زادة. مفتاح السعادة ومصباح السيادة من في موضوعات العلم. بيروت: دار الكتب العلمية، 1985، مج1، ص 11.

(2) نفس المصدر.

■ 2 ■

تشجيع العلم والعلماء

التشجيع على الاشتغال بالعلوم والبحث فيها أمر حيوي وهام جداً لتقدمها وازدهارها. وقد ذكرت لنا كتب التراث والتاريخ العربي والإسلامي العديد من القصص والحكايات التي دلت على تشجيع الخلفاء والأمراء والحكام العرب والمسلمين للعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم، مما كان له أثر كبير في إثراء وازدهار الحياة الفكرية للحضارة الإسلامية، بما قدمه أولئك العلماء من مؤلفات وابتكارات جديدة في جميع المجالات العلمية مثل: الطب، والرياضيات، والفلك، والطبيعة، والكيمياء، والميكانيكا، والجغرافيا، والموسيقى وغيرها؛ وفي المجالات الأدبية والاجتماعية المختلفة. ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال مراجعتنا للمؤلفات التي ألّفت خلال فترة ازدهار الحضارة الإسلامية، والتي ضاع الكثير منها بسبب النكبات التي حلت بالوطن العربي والعالم الإسلامي؛ كالحروب الصليبية والغزو المغولي والاستعمار الأوروبي في العصر الحديث، ولا يزال الكثير منا أيضاً ينتظر التحقيق والنشر مثل المخطوطات الكثيرة الموجودة في مكتبات العالم الكبرى في بريطانيا وأمريكا، وتركيا، وروسيا، وإيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا.. وغيرها من البلدان الأخرى.

وكان تشجيع الحكام المسلمين لأهل العلم حافزاً قوياً لهم جعل العلماء يتنافسون على الكتابة والتأليف في العديد من فروع العلم التي كانت معروفة في ذلك الوقت، وكذلك كان لتشجيع حركة الترجمة والنقل من اللغات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها إلى اللغة العربية دور كبير في وقوف العرب على علوم وثقافات الحضارات السابقة حيث، درسوها دراسة جيدة واستوعبوها، وكانت ذات فائدة عظيمة لهم فيما وضعوه بعدها من إسهامات وإضافات وابتكارات جديدة لم يعرفها العالم من قبلهم.

ويمكننا القول بـأن أصحـاب الأمـر قـاموا بتشـجيع العلـم والعلمـاء خـلال فـترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ولمدة تزيد عن تسعة قرون. فهيؤوا لهم كـل مـا مـن شأنه أن يكفل تقدم ونمو العلـوم والآداب والفنـون، وبذلـوا كـل الإمكانيـات لذلـك؛ لإيمانـهم بـأن العلـم هـو أهـم أسـس وركـائز وتقـدم الأمـم والحضـارات. وقـد فـاقت الحضارة الإسلامية في تشجيعها للعلم والعلماء أي حضـارة سـبقتها. لـم نـر أي تمـيز بـين العلمـاء إلاَّ بقـدر مـا يقدمـه هـذا العـالم أو ذاك لأُمتـه وحضارتـه. وكـان الأمـراء والحكام يتنافسون في كسب العلماء وإغرائهم من أجـل التـأليف والكتابـة والاشـتغال بالقضايا العلمية التي كان الحكام يرون أنها ذات أهمية بالغة وذات صلة وثيقـة بالحيـاة اليومية للمجتمع الإسلامي، كما كان يفعل الحكم المسـتنصر الـذي كـان يقـوم بـإغراء العلماء «بالقدوم إلى الأندلس أو بالتأليف من أجل خزائـن الكتـب الأندلسـية، ونقـل الكتـب مـن الخـارج، وتشـجيع الثقافـات المختلفـة مـن أدبيـة ودينيـة وفلسـفية، ودفـع الملكات الأندلسية إلى جمع التراث الأندلسي قبل أن يتطاول عليه الزمن»[1].

وكان الخلفاء والأمراء والحكام يقدمون الدعم والتشجيع المادي والمعنوي. فقد كانوا يمدون العلماء بالأموال الطائلة التي تفي باحتياجاتهم المعيشية، بحيث لا يحتـاج العالم إلى الكد والعمل من أجل لقمة العيش، فتوجـه جـلَّ نشـاطه للاشـتغال بـالعلم والبحث فيـه والتـأليف والابتكـار والتجديـد، بمـا يتمشـى وإثـراء العلـوم وسـد حاجـة المجتمـع الإسـلامي مـن الاختراعـات التـي تعـد مـن لـوازم التحضـر وانتشـار الثقافـة وغيرها. أما الدعم المعنـوي فقـد كـان علـى قـدر مـن الأهميـة بحيـث يرفـع مـن همـة العلماء، فيخلصـون فـي أداء أعمالـهم التـي تتعلـق بـالبحث العلمـي، ممـا يـؤدي إلـى ازدهارها وتطورها بشكل كبير جداً ويرفع من مكانة الحضارة الإسلامية إلى مـا تسـمو به على غيرها من الحضارات الأخرى التي سبقتها.

---

(1) إحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة. ط6. بيروت: دار الثقافة، ص 64.

وما سنورده هنا من روايات دالة على ما كان يلقاه العلماء العرب والمسلمون من الحكام والأغنياء والمجتمع الإسلامي بشكل عام إلاَّ غيض من فيض، ويمكن للقارئ أن يجد المزيد من مثل هذه القصص في كتب التراث والتاريخ العربي والإسلامي وهي كثيرة ومتنوعة.

فمن القصص التي تروى عن تشجيع العلم والعلماء ما رواه ابن أبي أصيبعة في كتابة «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» من أن المأمون أحضر حنين بن إسحاق، حيث لم يجد من يضاهيه في الترجمة من اليونانية إلى العربية، «وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية، وبذل له من الأموال والعطايا شيئاً كثيراً»[1]. وكان المأمون كريماً مع حنين إلى درجة كبيرة جداً حتى إنه كان يعطيه وزن الكتاب الذي ينقله إلى اللغة العربية ذهباً[2].

ومما يروى عن المأمون أيضاً، ما رواه ياقوت الحموي في كتابة «معجم الأدباء» حيث ذكر نقلاً عن أبي بريدة الوضاحي من أن أمير المؤمنين المأمون عندما أمر الفرّاء ـ من علماء اللغة ـ أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمعه من العرب؛ أمر «أن تفرد له حجرة من حجر الدار، ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوق نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤذنونه [يُعْلمونه] بأوقات الصلاة، وصير [جعل] له الوراقيّن وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف [ألَّف] كتاب الحدود، وأمر المأمون بكَتْبه في الخزائن، وبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ يملي كتاب المعاني»[3].

ويروي الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» أنه لما ألّف أبو عبيد القاسم بن سلام (أو سلامة) كتاب «غريب الحديث» عرضه على عبد الله بن طاهر (صاحب

---

(1) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1965، ص 259.

(2) نفس المصدر، ص 260.

(3) ياقوت. معجم الأدباء. بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د.ت]، مج 10، جـ 20، ص 12.

خراسان) فاستحسنه وأعجب به إعجاباً كبيراً فقال: إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق أن لايحوج طلب المعاش، فكان أنْ جعل له عشرة الآف درهم كل شهر[1]. ومما يرويه ابن النديم عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه كلما ألّف كتاباً أهداه إلى عبد الله بن طاهر فيحمل إليه أموالاً كثيرة تشجيعاً له على التأليف والكتابة، وقد توفي أبو عبيد القاسم سنة 224 هجرية بمكة المكرمة وكان قد وفد إليها حاجاً من بغداد[2].

ومن أشهر الذين كانوا يشجعون العلم والعلماء الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر، الذي كان على درجة كبيرة من العلم والثقافة، وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها، يبذل في سبيل نشر العلم ومساعدة العلماء الأموال الكثيرة، حتى إنَّ الأندلس في عهده شهدت أعظم فترات استقرارها السياسي، وأزهى فترة ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب، وأصبحت عاصمة الخلافة الأندلسية قرطبة كعبة العلم والعلماء وقبلة طلاب العلم يأتون إليها من كل مكان من أوروبا والعالم الإسلامي، ومن الروايات التي ترويها كتب التاريخ عنه دعماً وتشجيعاً للعلماء والأدباء أنه لما سمع بأن الأصفهاني بدأ في وضع كتابه «الأغاني» في بغداد، بعث له بألف دينار من الذهب العين، فأرسل له أبو الفرج الأصفهاني نسخة من الكتاب قبل أن يخرجه في العراق. وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم. وكان من بين الذين قربهم الحكم، وبذل لهم العطايا والأموال العالم اللغوي أبو علي القالي الذي نشأ في بغداد وفيها تعلم، ثم بعد ذلك خرج قاصداً المغرب ووصل الأندلس عام 330 هجرية في أيام عبد الرحمن الناصر، وكان الحكم في تلك الفترة ولياً للعهد، فتلَّقى أبا علي القالي «بالجميل وحظى عنده وقربه وبالغ في إكرامه، ويقال إنه قد كتب إليه ورغَّبه في

(1) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتاب العربي، [د. ت]، ج12، ص 406.
(2) ابن النديم. الفهرست. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1978، ص 106.

الوفود عليه واستوطن قرطبة ونشر علمه بها وكان إماماً في علم اللغة»[1]. وبعد أن أصبح الحكم خليفة الأندلس بعد والده زاد من تشجيعه لأبي علي القالي، وحثه على التأليف وينشطه بواسع البذل ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام. ومات أبو علي في خلافة المستنصر بقرطبة في شهر ربيع الآخر عام 356 هجرية.

ومن تلك الأمثلة التي تدل على إكرام العلماء وتقديرهم ما رواه ابن خلكان صاحب كتاب «وفيات الأعيان» من أن صاعد البغدادي الذي رحل عن بغداد إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم، وولاية المنصور بن أبي عامر حوالي سنة 380 هجرية، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة، «فأكرمه المنصور وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه، وكان مع ذلك محسناً للسؤال حاذقاً في استخراج الأموال، وجمع له كتاب (الفصوص) نحا فيه منحى القالي في أماليه [كتاب الأمالي لأبي علي القالي]، وأثابه عليه بخمسة آلاف دينار»[2].

هذه بعض الصور التي زخرت بها كتب التاريخ والتراث العربي الإسلامي، وهي دليل كاف على ما كان يجده العلماء والمشتغلون بالعلوم والبحث العلمي من دعم مادي على كل مستويات الدولة، وهو دعم كان له أثره في تقدم العلوم على اختلاف أنواعها دينية ودنيوية، وكان له أثره الكبير أيضاً في إثراء حركة التأليف والنشر في الحضارة الإسلامية على امتداد فترة ازدهارها وتقدمها حتى القرون القليلة الماضية.

أما الجانب الآخر من الدعم الذي كان يلقاه علماء العرب والمسلمين من الحكام والمجتمع على السواء فهو الدعم المعنوي الذي كان له أكبر الأثر في حفز وتشجيع العلماء على الخوض والبحث في العديد من القضايا التي كانت موضوع اهتمام

(1) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. تحقيق فرانسيسكو كوديرا. مدريد: مطبعة روخس 1884، ص217.

(2) ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، [د. ت]، ج 2، ص 488.

المشتغلين بالعلوم الدينية والطبية والأدبية واللغوية وغيرها من العلوم الأخرى، بل إن هناك العديد من العلماء كان حافزهم المعنوي أكبر من الحافز المادي، حيث كانوا يؤمنون بالعلم أكثر من إيمانهم بالمال أو الجاه أو السلطان.

ومن هذه الصور أو القصص ما يروى عن الخليفة العباسي هارون الرشيد أنه أكل مع أبي معاوية الضرير طعاماً «فلما قام [أبو معاوية] ليغسل يديه تناول الرشيد الإبريق وصب عليهما والرجل [أبو معاوية] لا يعلم فقال [الرشيد] له: أتدري من يصب الماء على يديك؟ قال: لا، قال: أنا الخليفة، قال: أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إجلالاً للعلم»[1].

ومن صور الدعم الأدبي والمعنوي الناصعة في تاريخ العلم العربي الإسلامي ما رواه ابن أبي أصيبعة عن أبي إسحاق الصابيه الكاتب من أن ثابت بن قره كان يمشي مع الخليفة المعتضد في أحد بساتين دار الخلافة المسمى «الفردوس» وكان الخليفة المعتضد «قد اتكأ على يد ثابت وهما يتماشيان، ثم نثر المعتضد يده من يد ثابت بشدة، ففزع ثابت، فإن المعتضد كان مهيباً جداً، فلما نثر يده من يد ثابت قال له: يا أبا الحسن ـ وكان في الخلوات يكنيه وفي الملأ يسميه ـ سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يَعْلُون ولا يُعْلَوْن»[2]. إن هذه الصورة هي واحدة من صور كثيرة تبين بوضوع وجلاء ما كانت عليه قيمة العلماء عند المسؤولين في الدولة الإسلامية، ومثلها كان في سائر أرجاء هذه الدولة الواسعة الأطراف في بخارى وسمرقند، ودمشق، والقاهرة، والمغرب العربي والأندلس. فالعلماء كانوا محل تقدير واحترام وإكرام وإجلال أينما كانوا وأينما ذهبوا، فلذلك كان لزاماً عليهم أن يعطوا علمهم للمجتمع الذي رعاهم

---

(1) عز الدين فراج. فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية. القاهرة: دار الفكر العربي، [د. ت]، ص36.

(2) ابن أبي أصيبعة، ص 296.

ومدهم بما كانوا في حاجة إليه، ومن ذلك كان تقدم الحضارة الإسلامية المجيدة، وكان الإشعاع العلمي والثقافي في صورته الإنسانية يشع على العالم على مدى قرون عديدة، ينادى الناس إلى العلم وإلى الإخاء والمساواة والمحبة على اختلاف ألوانهم وأديانهم ولغاتهم.

ومن القصص التي تدل على ما للعلماء من قيمة في الحضارة الإسلامية قصة الحاكم صاحب مصر مع الحسن بن الهيثم المشهور في كثير من العلوم خاصة الفلك والرياضيات، حيث إن الحاكم سمع بأمر ابن الهيثم وما عليه من علم فتاقت نفسه إلى مقابلته ورؤيته، فلما جاء ابن الهيثم إلى مصر «خرج الحاكم للقائه والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزيّة تعرف بالخندق وأمر بإنزاله وإكرامه»[1]. كذلك كانت مجالس الخلفاء والمجالس العلمية دافعاً يحفز العلماء على البحث والتبحر في العلم والكشف عن أسرار الكون وبدائع مخلوقات الله. في هذه المجالس كان العلماء يجتمعون ويتناقشون في كثير من قضايا العلم في جميع فروعه، فيستمع بعضهم إلى بعض ويبدي كل منهم وجهة نظره حيال القضية المطروحة والحل الذي يراه مناسباً لها، ويسفر الاجتماع عن معلومات علمية قيمة تستخدم في أغراض البحث العلمي وفي التأليف والتدريس وغيرها.

وكان الخلفاء والأمراء والوزراء كثيراً ما يحضرون هذه المجالس، ويناقشون العلماء في كثير من القضايا التي يرونها تهم المجتمع الإسلامي، ويطلبون من العلماء إيجاد الحلول المناسبة لتلك القضايا، وهذا الحضور كان بمنزلة الدعم والتشجيع المعنوي الذي يرفع من قيمة العلماء ويجعلهم في مكان مرموق في المجتمع.

ونذكر من بين مجالس العلم هذه مجالس هارون الرشيد التي كانت تجمع الأدباء والشعراء والفلاسفة وغيرهم، ومجلس المأمون الذي يعد من أعظم هذه

---

(1) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي. تأرّخ الحكماء. بغداد: مكتبة المثنى [عن نسخة يوليوس ليبرت، لايبزغ 1903]، ص 166.

المجالس في تاريخ الحضارة الإسلامية، حيث كان المأمون نفسه من العلماء والمثقفين، فكان مجلسه يجمع رجال العلم والأدب والشعر والأطباء والفلاسفة، يأتون من كل مكان من أنحاء الدولة الإسلامية فيجدون الرعاية والإكرام، وكان المأمون كثيراً ما يبدأ بمناقشتهم في بعض القضايا التي تثير العلماء، فيأخذونها بالنقاش، وكان هو أيضاً يبدي وجهة نظره في العديد من المسائل التي تطرح للمناقشة. وكذلك كان مجلس الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر من أشهر مجالس العلم، حيث يجمع فيه الخليفة العديد من العلماء الأندلسيين والعلماء القادمين إلى الأندلس من مناطق أخرى مختلفة، وكان الحكم مثقفاً واسع الاطلاع عالماً، وله رغبة جامحة في حضور مجالس العلماء والسماع منهم ومناقشتهم، وإبداء رأيه في كثير من القضايا والمسائل التي كانت تطرح على بساط المناقشة والتحليل. ومن مجالس العلم في الأندلس كذلك مجلس المنصور بن أبي عامر، حيث كان له مجلس معروف في الأسبوع يجمع فيه أهل العلوم كلما كان مقيماً في قرطبة، إذ كانت غزواته المتكررة كثيراً ما تكون سبباً في بعده عن عاصمة الخلافة. وكذلك كان للحكام الفاطميين في مصر مجالس علمية يعقدونها من وقت لآخر، «وقوام هذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين ينقسمون إلى جماعات تبعاً لمواد دراساتهم وتخصصهم. فجماعة للمنطق، وأخرى للفقه، وثالثة للرياضة، ورابعة للطب، وهكذا»[1]. وكذلك كان السلطان محمود الغزنوي يقيم المجالس للعلماء فيكرمهم ويجالسهم ويحسن إليهم، فكانت المناظرات الطويلة والمناقشات تعقد بحضوره.

ولم تكن هذه المجالس والندوات العلمية والأدبية حكراً على الخلفاء والسلاطين، بل إن كثيراً من الوزراء كانوا يقيمون مثل هذه الندوات والمجالس في ديارهم وقصورهم، أو في بعض الأماكن التي يخصصونها لذلك كالمكتبات

---

(1) عبد الحليم منتصر. تاريخ العلم ودور العلماء العرب من تقدمه. ط3. القاهرة: دار المعارف، 1969، ص 54.

والمدارس. ومن بين هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات أبو الفضل جعفر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، ومجلس أبي عبد لله الحسين بن سعدان في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري، وكان هذا المجلس حافلاً بجمع كبير من العلماء والأدباء وغيرهم. ويروي المقريزي في خططه أنه لما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله الفاطمي «رتب في داره العلماء من الأدباء والشعر والفقهاء والمتكلمين وأجرى لجميعهم الأرزاق. . ونصب له مجلساً وهو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وتجرى بينهم المناظرات، وكان يجلس أيضاً في يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه، ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقرّاء والنحاة وأصحاب الحديث ووجوه أهل العلم والشهود»[1]. وما هذه المجالس إلاَّ على سبيل المثال لا الحصر، حيث إن العديد منها كان يعقد في كل مدينة من مدن الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

في هذا الجو من الدعم والتشجيع والحفز ورعاية الحكام والولاة والوزراء للعلم والعلماء والبذل لهم وإكرامهم، مما شدّ من همة العلماء والمشتغلين بالعلم وثبّت من عزيمتهم، ازدهرت العلوم جميعها في الدولة الإسلامية وكثر عدد العلماء في كل فرع من فروع العلوم المختلفة من طب، ورياضة، وفلك، وموسيقى، وجغرافية. . إلخ. وكثرت المؤلفات العلمية التي غطت جميع فروع العلم والمعرفة الإنسانية، وكانت سبباً في تقدم البشرية إلى المكانة التي تسمو إليها بالعقل الذي وهبها إياه الله، سبحانه وتعالى، وبالعلم الذي زادها إيماناً على إيمانها بقدرة الله العظيمة، فكانت الحضارة الإسلامية حضارة العلم والإيمان، الحضارة التي زودت البشرية بالزاد الروحي والزاد الدنيوي لمواصلة مسيرتها وتعمير الأرض وبناء الإنسان الكامل دينياً ودنيوياً.

---

(1) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي. الخطط المقريزية. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، [د. ت]، مج2، ص 341.

ونتيجة من نتائج هذا الدعم والتشجيع من المجتمع الإسلامي شعوباً وحكاماً للعلم والعلماء أن غطى العلم والاشتغال به كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي، وأصبح حب العلم وطلبه والسعي في أثره سمة تميز الإنسان المسلم في كل مكان في مدينة أو قرية، الجميع يشد الرحال لطلب العلم وبذل كل ما في الإمكان لذلك.

وكذلك كانت دكاكين ومحلات الوراقين، بالإضافة إلى مهمتها الأصلية وهي نسخ الكتب وبيعها، منتديات فكرية هامة يجتمع فيها العلماء والأدباء، فيتزودون من خلالها بأحدث المعلومات في كثير من الموضوعات، ويقفون على الموضوعات ويقفون على المؤلفات الجديدة التي يقوم بنسخها الوراقون، ويكفي دليلاً على أهمية محلات الوراقين أن عدداً منهم كان من أئمة الأدب والعلم مثل ابن النديم صاحب «الفهرست»، وكذلك ياقوت الحموي مؤلف «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» وغيرهما كثيرون ممن كان يشتغل بهذه المهنة.

■ 3 ■

المؤسسات التعليمية في الحضارة الإسلامية

1. المساجد والكتاتيب:

كانت المساجد هي الأساس الأول للتعليم في الحضارة الإسلامية. فالمساجد لم تكن أماكن للصلاة والتعبد فقط، بل كانت أماكن يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة، وقراءة القرآن الكريم وعلوم الدين واللغة، وغيرها من فروع العلوم الأخرى. وبعد ذلك ظهرت الكتاتيب الملحقة بالمساجد لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والقرآن وبعض علوم العربية والرياضة، ويمكن أن نقول إن الكتّاب في ذلك الوقت كان أشبه بالمدرسة الابتدائية - إلى حد كبير - في الوقت الحاضر[1]. وقد انتشرت الكتاتيب انتشاراً كبيراً بحيث قيل إن في مدينة واحدة من مدن صقلية كان هناك حوالي ثلاثمائة كتاب[2].

وكان النظام التعليمي المتبع في المساجد هو نظام الحلقات، حيث يتم تعليم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعلوم اللغة وغيرها من العلوم الأخرى. وقد أصبحت المساجد بمنزلة الجامعات في العصر العباسي، حيث كانت الشروح والإملاءات والمناقشات والمناظرات؛ فحول أعمدة المسجد كان يجلس الأساتذة أو الشيوخ ويلتف حولهم الطلاب، وكانت الحلقات مفتوحة لمن شاء أن يتعلم. وفي المساجد كان العلماء والأساتذة الزائرون يلقون المحاضرات على المتعلمين، فكانت فرصة عظيمة للطلاب للاستماع إليهم والإفادة من علمهم. وكان كثير من الأساتذة

---

(1) مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا. ط2. بيروت: دار الإرشاد، 1968، ص 131.
(2) نفس المصدر.

الزائرين يأتون من مناطق بعيدة مختلفة من العالم الإسلامي إما بقصد التعليم والتعلم أو أثناء القيام برحلاتهم إلى الحج والتوقف في عدد من المدارس التي يمرون بها، وكان الشيوخ والأساتذة يمنحون الإجازات (الشهادات) للطلاب المتميزين، حيث يمكن للطالب بعد ذلك أن يشكل حلقة خاصة به في المسجد ويعلم غيره.

واستمرت المساجد، إلى جانب كونها أماكن للعبادة، في تأدية دورها في نشر العلوم والثقافة بكل فروعها، والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية المجيدة، وكان المسجد هو الصورة الأولى للجامعة الإسلامية التي تدرّس فيها العلوم الدينية والدنيوية، ومثلت حركة الإشعاع الفكري والثقافي التي كانت تنشط في المجتمع الإسلامي فتوجهه الوجهة السليمة التي يجب أن يسير عليها. وهذه المهمة العظيمة، وهي مهمة نشر العلم والمعرفة، قامت بها المساجد منذ وقت مبكر واستمرت خلال مرحلة بناء الحضارة الإسلامية، إلى جانب المراكز العلمية والثقافية الأخرى التي ظهرت بعد ذلك كالمدارس والمكتبات. وقد تحولت بعض المساجد الكبرى في العالم الإسلامي آنذاك إلى جامعات دينية ودنيوية معاً، حيث نجد الكثير من العلماء يقومون بالتعليم وإلقاء المحاضرات وإدارة حلقات النقاش فيها في مختلف العلوم والفنون والآداب، ولعل أفضل الأمثلة على المساجد التي استمرت في القيام بدورها في نشر الثقافة والعلوم الإسلامية «الجامع الأزهر» الذي قام بمهمته كجامعة إسلامية منذ القرن الرابع الهجري، ومازال يقوم بها حتى وقتنا الحاضر، وكذلك جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس بالمغرب.. إلخ، وبذلك تعتبر الجامعات مؤسسات تعليمية علمية هي من نتاج وإفراز حضارة الإسلام الرائدة.

2. المجالس العلمية:

وإلى جانب المسجد والكتّاب، كانت هناك المجالس العلمية التي تعقد في بيوت العلماء، حيث كان العلماء يخصصون جزءاً أو مكاناً في بيوتهم يجتمع فيه أهل العلم ـ عادة من طبقة أو فئة من الناس ـ لمناقشة المسائل العلمية والقضايا

الدقيقة المتنوعة، فيبدى كلٌّ منهم رأيه فيها، والحل الذي يراه مناسباً لكل مسألة أو قضية مع إيراد البرهان أو الحجة على ذلك. وكان هناك أيضاً ما يسمى بمجالس الخلفاء، حيث كان الخلفاء يخصصون في قصورهم أماكن خاصة لعقد مثل هذه المجالس التي كانت تعتبر منتديات للعلماء والفلاسفة والأدباء، يتناقشون ويتجادلون فيها في مختلف المواضيع الدينية وغير الدينية، وكان كثير من الخلفاء يشاركون في هذه الندوات ويثرون النقاش، ويبدون رأيهم في العديد من القضايا. وقد اعتبر البعض هذه المجالس والندوات حافزاً ومشجعاً على الاشتغال بالبحث العلمي، وعاملاً له أهميته في التقدم الذي حدث في مجالات متعددة، خاصة أيام هارون الرشيد، وابنه الخليفة المأمون الذي كان من مشجعي العلم الكبار، وكان يجتمع في مجلسه الكثير من الفقهاء ورجال العلم والفلاسفة والأدباء والشعراء من جهات متعددة من العالم الإسلامي، فيجلس إليهم ويناقشهم في كثير من المسائل والقضايا في موضوعات متنوعة، ويشملهم جميعاً برعايته بما يبذله لهم من المنح والعطايا التي تعتبر في ذلك الزمان رمزاً لتشجيع الدولة للعلم والعلماء. وكما كانت هناك مجالس العلم في قصور الخلفاء في الدولة العباسية، وجدت مثل هذه المجالس عند الفاطميين، وكذلك عند خلفاء وملوك الأندلس. وكان الخلفاء المسلمون يعتبرون أنفسهم رعاة وحماة للعلم والثقافة، وأن عليهم واجب تشجيع كل من يعمل في ميدان العلوم وتوفير أسباب الراحة؛ له حتى يمكن أن يبدع ويساهم في حركة التقدم العلمي لأمته الإسلامية.

3. المدارس:

وبما أن المسجد كان يقوم بمهمته العلمية على الوجه الأكمل، فلم تظهر المدرسة للوجود إلاَّ عندما بدأت الحلقات العلمية في المساجد تكثر وتتسع. وكثرة الحلقات أدت إلى كثرة المناقشات والمناظرات والحوار والجدل، الأمر الذي أدى بالمسجد إلى أن يبتعد عن أداء مهمته الأساسية وهي العبادة، حيث سبّب التوسع في النقاش والحوار

إزعاجا للذين يقومون بالعبادة وأداء واجباتهم الدينية. أدى هذا الأمر إلى البحث عن إيجاد مكان بديل للدراسة والتعليم، وما يصاحب ذلك من نقاش وحوار حتى يبقى المسجد في جلال ووقار وهدوء. وهذا المكان البديل هو الذي عرف فيما بعد باسم «المدرسة». وقد تميزت مباني المدارس عما سبقها من مؤسسات تعليمية بعدة مزايا وخصائص انفردت بها، ومنها ما يأتي[1]:

1 ـ احتوت المدارس على قاعات للمحاضرات أو «إيوان»، ويعد من أبرز معالمها.

2 ـ احتوت على مساكن للطلاب الذين يتلقون العلم فيها، ومساكن للأساتذة، بالإضافة إلى عدد من المرافق الأخرى كالمطابخ وحجرات الطعام والحمامات.

3 ـ احتوت كثير من المدارس على مسجد للصلاة، ومكتبة لاستعمال الطلاب والأساتذة، بالإضافة إلى أن بعض المدارس كانت تحتوي على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق.

وفي أغلب الأحيان كان الإشراف على هذه المدارس للدولة التي اهتمت بتعليم رعاياها وجعلت من التربية والتعليم واجباً عليها أن تقوم به وترعاه. وكانت الدولة تعين المدرسين الأكْفاء للتدريس في هذه المدارس، وجعلتها مجاناً لمن أراد أن يتعلم، بل إن كثيراً من المدارس كان يقدم منحاً لأولاد الفقراء بالإضافة إلى الطعام والمسكن المجاني؛ ولذلك كانت المدارس مكتظة بالطلاب في مختلف فروع العلم والمعرفة.

وانتشرت المدارس النظامية في أرجاء الدولة الإسلامية من الشرق إلى الغرب، وتعددت أنواع المدارس من مدارس تعلم الأطفال القراءة والكتابة، إلى مدارس عليا يتلقى فيها الطلاب التعليم العالي، وهي بمنزلة الكليات الجامعية في عصرنا الحاضر.

ويجمع المؤرخون على أن أول من أسس مدرسة في الإسلام هو الوزير «نظام الملك» الذي تنسب إليه المدارس النظامية وأشهرها «المدرسة النظامية» في

---

(1) حسن شميساني. مدارس دمشق في العصر الأيوبي. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983، ص11.

بغداد التي أسست عام 457 هجرية، والتي يعتبرها المؤرخون أسبق المدارس النظامية إلى الظهور[1]. وقد اشتهرت المدرسة النظامية في بغداد باعتبارها أول مدرسة كبرى منظمة تنظيماً دقيقاً، وقد تخرَّج في هذه المدرسة جماعة كبيرة من رجال العلم الذين طارت شهرتهم في الآفاق وساعدوا فيما بعد على تقدم التعليم المدرسي في معظم بلدان العالم الإسلامي. وقد احتوت المدرسة النظامية في بغداد على مكتبة ضمت آلاف الكتب النفيسة التي لا يوجد لها مثيل في ذلك الوقت، وكان يقوم على خدمتها «أمناء» ومشرفون وغير ذلك. واستفادت مكتبة المدرسة النظامية من الوقف الذي كان العلماء يوقفونه عليها، حيث أوقف العديد منهم مجموعات من كتبهم على المكتبة، مثل العلامة محب الدين بن النجار صاحب كتاب «ذيل تاريخ بغداد» الذي أوقف ما قيمته ألف دينار من كتبه، وكان ذلك في النصف الأول من القرن السابع الهجري[2]. ومن بين المدارس التي اشتهرت في التاريخ الإسلامي «المدرسة المستنصرية»، ببغداد التي أسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله. وقد بدأ في بنائها سنة 625 هجرية، وتم افتتاحها سنة 631 هجرية. وقد أشرف على عمارتها وبنائها محمد بن العلقمي وأخوه أحمد بن العلقمي. ويروى أن يوم افتتاحها كان احتفالاً عظيماً في بغداد، ذُبح فيه ألفا رأس من الغنم، ووضعت فيه الحلاوة صفوفاً، ومن أنواع الأكل التي وزعت في ذلك اليوم كان اللحم المشوي، والدجاج، وأنواع كثيرة من المرطبات، أكل منه الحاضرون ووزع منه على معظم بيوت بغداد وأهلها من الخاصة والعامة[3]. أما من حيث موقعها وعمارتها وعجائبها، فإن عبد الرحمن الأربلي صاحب كتاب «خلاصة الذهب المسبوك» يقول في ترجمته للمستنصر بالله: «ثم إنه أنشأ مدرسة على شاطئ دجلة

(1) نفس المصدر، ص 13.

(2) أبو الفداء حافظ ابن كثير. البداية والنهاية. ط3. بيروت: مكتبة المعارف، 1980، ح13، ص169.

(3) ناجي معروف. تاريخ علماء المستنصرية. ط2. بغداد: جامعة بغداد، 1965، ح1، ص 42.

وجعلها وقفاً على المذاهب الأربعة ليحصل بها كمال المنفعة. فجاءت محكمة البناء راسخة في الماء فسيحة الفناء، وضعها غريب وحُسن ترتيبها عجيب، شامخة إلى عنان السماء، تضحك شرفاتها بالسُّرور، ويظهر في أبنيتها الفرح والحبور. ويلمع العز من جوانبها، ويطلع السعد من أساسها وأعاليها»[1]. أما من حيث العلوم التي تدرس فيها فيقول: «فهي كعبة الأنام وقبة الإسلام، مجمع سائر الدين، ومذاهب المسلمين، وعلم الأصول، والفروع المتفرق فيها والمجموع، وعلم القوافي وأحاديث الرسول، ومعرفة الحلال والحرام، وقسمة الفرائض والتركات، وعلم الحساب والمساحات، وعلم الطب ومنافع الحيوان، وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان»[2]. وكذلك يصف الأربلي أثاث المدرسة وزينتها، وما وضع فيها من عمال يعملون بها، وأساتذة يعلمون الناس في كل العلوم، وما يقدم لهم من احتياجاتهم ومعيشتهم، والأدوات التي يحتاجون إليها للتعليم وغيره، فيقول في ذلك: «ولما تكملت أبنيتها كسيت بأفخر الملابس، وتجلت كأحسن العرائس، ورتب لها البوابون والفراشون والخدم والطباخون، وأسكن لكل مذهب اثنين وستين من الفقهاء، وجعل لهم مدرساً وأربعة معيدين، وأجريت لهم بها المشاهرات الوافرة وما يحتاجون إليه من الخبز واللحم والحلوى والفواكه والبزر والصابون، وجُعل فيها طبيب حاذق ماهر وأُثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه في علم الطب، وجُعل لهم الأكحال السائلة وبنيت لهم صُفَّة فاخرة مقابلة للمدرسة، يجلس فيها الطبيب فيقصده المرضى فيداويهم»[3]. أما عن مكتبة المدرسة المستنصرية فيقول الأربلي نقلاً عن ابن الساعي: «إن الخليفة المستنصر بالله

---

(1) عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربلي. خلاصة الذهب المسبوك. تصحيح مكي السيد جاسم. بغداد: مكتبة المثنى، [عن طبعة بيروت 1885]، ص 287.

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر.

جعل في المدرسة خزانة كتب (مكتبة) ونقل إليها من الكتب النفيسة والربعات الشريفة والأصول المضبوطة التي حوت جميع العلوم مائتين وتسعين حملاً، بالإضافة إلى ما نقل إليها بعد ذلك. وقد قرر المستنصر بالله أن يكون في المكتبة عشرة أشخاص يشتغلون بعلم الحديث النبوي، ويكون لهم شغلان يشغلان الطلبة بعلم الحديث النبوي، ورُتِّب عندهم شيخ على الإسناد يقرأ عليه الحديث»[1].

وقد استمر التعليم قائماً بالمدرسة المستنصرية فترة طويلة من الزمن، تخللتها فترتان: الأولى بسبب الغزو المغولي لبغداد عام 656 هجرية، والثانية دخول جيوش تيمورلنك واحتلالها لبغداد مرتين في سنة 765 هجرية، وسنة 803 هجرية[2].

وقد انتشرت المدارس في سائر البلاد الإسلامية. فقد كان في قرطبة عاصمة الأندلس أكثر من خمس وثلاثين مدرسة افتتح الحكم الثاني سبعاً وعشرين منها عام 965 ميلادية، وقصرها على أبناء الفقراء. وفي دمشق وجد عدد كبير من المدارس خاصة في العصر الأيوبي، حيث كانت هناك المدرسة الصلاحية ـ نسبة إلى السلطان صلاح الدين ـ والمدرسة العصرونية، والمدرسة الأسدية، والمدرسة العادلية، والمدرسة العزيزية، والمدرسة البدرية، والمدرسة الأمجدية، والمدرسة الإقبالية، والمدرسة البهنسية، والمدرسة الشامية الجوانية، والمدرسة الصاحبية، والمدرسة الأتابكية، والمدرسة المرشدية، والمدرسة الرواحية.. وغيرها كثير[3]. ومن أشهر المدارس التي أسست بدمشق المدرسة النورية الكبرى التي أسسها نور الدين بن محمود بن زنكي، والتي كانت تحتوي على إيوانات أو قاعات للدراسة، ومسجد، واستراحة للمدرسين، ومساكن للطلاب، ومسكن لخادم المدرسة، ومراحيض، بالإضافة إلى المطبخ وقاعة الطعام، ومخزن للمواد الغذائية، ومخزن

---

(1) نفس المصدر، ص 288.

(2) ناجي معروف، ص 42 ـ 43.

(3) انظر: حسن شميساني. مدارس دمشق في العصر الأيوبي.

عام للمدرسة. وقد أسس نور الدين زنكي هذه المدرسة لتدريس العلوم الشرعية على المذهب الحنفي، وقام بالتدريس فيها نخبة كبيرة من علماء مذهب أبي حنيفة. كذلك من بين مدارس دمشق نذكر المدرسة الدخوارية التي أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد، المعروف بالدخوار، وذلك عام 621 هجرية، وعرفت بالدخوارية نسبة إليه. ويقول ابن أبي أصيبعة في قصة إنشاء المدرسة: إنه «قبل سفر الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي عند الملك الأشرف وخدمته له، وقف داره وهي بدمشق عند الصاغة العتيقة شرقي سوق المناخليين، وجعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن يستغل ما ينصرف في مصاحها، وفي جامكية المدرس وجامكية المشتغلين بها. ووصى أن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي، وابتدأ بالصلاة في هذه المدرسة يوم الجمعة صلاة العصر ثامن ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة»[1] ويذكر ابن أبي أصيبعة أن الطبيب مهذب الدين عبد الرحمن بن علي أوقف داره لتكون مدرسة في سنة 622 هجره قبل أن ينتقل لخدمة الملك الأشرف[2].

وفي مصر فقد ذكر المقريزي في خططه أربعاً وسبعين مدرسة منها المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بالقاهرة، عرفت أولاً بهذا الاسم ثم عرفت أيضاً بمدرسة ابن زين التجار، أحد أعيان الشافعية، وقد درَّس بها فترة طويلة، ثم عرفت أيضاً بالمدرسة الشريفية، أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 566 هجرية، ويقول المقريزي إنها أول مدرسة أنشئت بالديار المصرية، وأول من درّس بها كان ابن زين التجار الذي عرفت باسمه لمدة من الزمن[3]، ومنها المدرسة القمحية،

---

(1) موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1965، ص 733.

(2) نفس المصدر.

(3) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي. كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ الخطط المقريزية. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، [د. ت]، ج2، ص 363 ـ 364.

ومدرسة منازل العز، ومدرسة العادل، ومدرسة ابن رشيق، والمدرسة الفائزية، والمدرسة القطبية، والمدرسة السيوفية، والمدرسة الفاضلة التي بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني بجوار داره بدرب ملوخيا بالقاهرة سنة 580 هجرية، ووقفها على طائفتي الفقهاء المالكية والشافعية، ووقف عليها مكتبة عظيمة في سائر العلوم قدَّر عدد كتبها بمائة ألف مجلد، نهبت أو ضاعت في فترة اشتداد الغلاء بمصر في سنة 694 هجرية، حيث كان الطلبة وغيرهم يبيعون الكتاب برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ولم يبق فيها إلاَّ مصحف قرآن كبير القدر مكتوب بالخط الكوفي، وتسميه الناس مصحف عثمان بن عفان، ويقال إن القاضي الفاضل مؤسس المدرسة اشتراه بأكثر من ثلاثين ألف دينار على أساس أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو موضوع في خزانة مفردة بجانب المحراب وعليه مهابة وجلال. وكانت هذه المدرسة كما يذكر المقريزي من أعظم مدارس القاهرة وأجلّها[1]. ومنها المدرسة الأزكشية، والمدرسة الفخرية، والمدرسة الصاحبية البهائية، والمدرسة الصاحبية التي أسسها الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر، وجعلها وقفاً على المذهب المالكي، وجعل فيها خزانة كتب، والمدرسة الشريفية، والمدرسة الصالحية التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر أيوب سنة 641 هجرية، وكانت أول مدرسة بمصر تدرس فقه المذاهب الأربعة، والمدرسة الكاملية التي أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر أيوب بن شادي بن مروان عام 622 هجرية، وعرفت أيضاً باسم دار الحديث الكاملية، والمدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر بيبرس عام 662 هجرية، وجعل فيها مكتبة اشتملت على أمهات الكتب في مختلف العلوم، وبنى بجوارها مكتباً لتعليم القرآن الكريم لأيتام المسلمين، وأجرى لهم المنح والكسوة، وأوقف على المدرسة ريع السلطان خارج باب زويلة فيما بين

(1) نفس المصدر، ص 366.

باب زويلة وباب الفرج، وكانت من أجل مدارس القاهرة في ذلك الوقت[1]. ومنها أيضاً المدرسة المنصورية التي أسسها الملك المنصور قلاوون هي والقبة التي بجوارها، ورتب بها دروس المذاهب الأربعة والطب، ودرساً بالقبة للحديث النبوي، ودرساً لتفسير القرآن الكريم، وبالقبة أيضاً مكتبة احتوت على عدة أحمال من الكتب في شتى العلوم، أوقفها الملك المنصور وغيره، وقد ضاع معظم كتب هذه المكتبة وتفرّق في أيدي الناس[2]. ومنها أيضاً المدرسة المحمودية التي أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الاستدار في سنة 797 هجرية، ورتب بها درساً، وجعل فيها مكتبة عظيمة لم يوجد مثلها في ذلك الزمن بديار مصر والشام، واحتوت على كتب في مختلف الفنون والعلوم، ولا يخرج لأحد منها كتاب إلاَّ أن يكون في المدرسة، وكانت من أحسن المدارس بمصر في ذلك الوقت[3].

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك العديد من المدارس في القدس وطرابلس الشام، وبعلبك، وخراسان، ومكة، والأندلس وشمال أفريقيا. وقد لعبت هذه المدارس على اختلاف أنواعها وتخصصاتها دوراً هاماً في تنمية وتقدم الحركة الفكرية والعلمية في البلدان الإسلامية، وإرساء الصرح العلمي الذي تميزت به الحضارة الإسلامية خلال فترة ازدهارها، وكانت مراكز علمية ينهل منها طلاب العلم من أرجاء العالم الإسلامي والأوروبي، حيث تعلم فيها العديد من الأوروبيين الذين رجعوا بعد ذلك إلى أوروبا وكانوا أساس عصر النهضة الأوروبية والحضارة الغربية الحديثة.

---

(1) نفس المصدر، ص 369.

(2) نفس المصدر، ص 380.

(3) نفس المصدر، ص 395.

■ 4 ■

حركة الترجمة وأعلامها

أ ـ حركة الترجمة وأثرها في الحضارة الإسلامية

نعني بالترجمة أو النقل نقل الكلام أو المعلومات أو الأفكار من لغة إلى لغة أخرى. وهناك عدة طرق وأساليب تتبع في عملية الترجمة أهمها: الترجمة الحرفية، والترجمة المعنوية.

فالترجمة الحرفية هي التي يتم فيها نقل الكلام وترجمته حرفياً؛ أي كلمة كلمة، حيث يقوم المترجم بوضع كل كلمة بمفردها، ويقابلها بكلمة تعبر عنها (مرادف) في اللغة المترجم إليها الكلام. ويرى البعض أن الترجمة الحرفية ربما تكون من أسوأ الطرق بسبب عيوبها التي منها[1]:

أ ـ أن لكل عبارة نظاماً من الترتيب لألفاظها يختلف باختلاف اللغات وإن التقت أحياناً.

ب ـ هناك عدد كبير من الكلمات في كل لغة ليس لها مرادف في لغة أخرى.

ج ـ أن المجازات البيانية لا يمكن أن تنقل من لغة إلى لغة بالطريقة نفسها.

د ـ كثيرون من أصحاب هذه الطريقة لا يجيدون اللغة المترجم منها أو اللغة المترجم إليها، فتأتي الترجمة رديئة وسيئة، وهذا ما حدث لبعض المؤلفات التي ترجمت من اليونانية إلى السريانية، ثم إلى العربية.

أما الترجمة بتصرف فهي الطريقة التي يستطيع فيها المترجم أن يضيف أشياء من عنده تستدعيها الضرورة، أو قد يحذف أشياء لا تفسد معنى العبارة المترجمة. وعملية الإضافة أو الحذف، أي التصرف قد تجعل الترجمة غير أمينة، إلا أنها تبقى في كل الأحوال أفضل من الترجمة الحرفية. والترجمة المعنوية هي التي يتم فيها

---

(1) حسين حمادة. تاريخ العلوم عند العرب. بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1987، ص 16.

ترجمة عبارات النص وإيراد المعنى الذي يعبر عنه في اللغة المترجم إليها، «متوخياً الأمانة في تأدية المعنى، متبعاً تنسيقاً في التعبير اللفظي تقتضيه اللغة المنقول عنها. في هذه الطريقة أمانة في أداء المعنى، فلا زيادة ولا نقصان وإن اختلف عدد الكلمات»[1]. وهذه الطريقة يراها الكثيرون بأنها أفضل الطرق وأكثرها ملائمة للمؤلفات العلمية.

وعقب الفتح الإسلامي اتصل العرب المسلمون بشعوب وأمم كثيرة كانت قد مرت بتجارب حضارية راقية في مختلف العصور، فحرصوا على معرفة تراث وعلوم تلك الأمم للاستفادة منه في حياتهم، وخاصة أن بعض تلك الشعوب كانت على اتصال مع العرب قبل الإسلام، إما بسبب التجارة أو بغيرها من الأسباب، وإن العرب أخذوا بعضاً من علوم تلك الشعوب لاستخدامها في أشياء دعت الحاجة إليها مثل الطب والفلك والرياضيات.

والترجمة التي تمت في ظل ورعاية الحضارة الإسلامية لتراث الأمم والشعوب من هنود، وفرس، ويونان، وغيرهم، كان لها أثر كبير في حفظ ذلك التراث، خاصة التراث اليوناني، من الضياع. فقد ضاعت معظم المؤلفات اليونانية ولم يبق منها سوى الترجمات العربية لها، مما جعل الأوروبيين في العصور التالية يترجمون كتب اليونان عن العربية، وبالتالي عرفت أوروبا جزءاً من تراثها من خلال إعادة ترجمته عن اللغة العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية الأخرى. وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه عن حركة الترجمة في الحضارة الإسلامية إنها حمت «آثار القدماء العلمية من الضياع والزوال. فكثير من المخطوطات لولا العرب لما عرفنا اليوم عنها شيئاً، ككتب جالينوس في علم التشريح، ومخطوطات هيرون، وفيلون، وفيلاوس في الميكانيكا والرياضيات،

(1) نفس المصدر، ص 17.

وبطليموس في البصريات، ومخطوطة لإقليدس في علم التوازن، ومخطوطة في (ساعة الماء) وقانون العوم لأرخميدس»[1].

دوافع الترجمة في الحضارة الإسلامية:

هناك الكثير من الدوافع أو الأسباب التي دفعت بالعرب المسلمين إلى ترجمة تراث الحضارات القديمة ونقله إلى اللغة العربية، وخصوصاً التراث اليوناني والهندي والفارسي. ومن هذه الدوافع والأسباب ما يأتي[2]:

1 ـ رغبة المسلمين في الاطلاع ومعرفة ما عند الأمم الأخرى من علوم وآداب وغيرها من المعارف الأخرى، كما حدث مع خالد بن يزيد عندما قرر ترجمة كتب الكيمياء اليونانية، وكذلك ما حدث مع بعض الخلفاء العباسيين كالمنصور والرشيد والمأمون.

2 ـ الجدل الديني بين علماء المسلمين منذ بداية العصر الأموي الذي بدأ فيه عقد الحلقات العلمية في المساجد، وما تبع هذه الحلقات من نقاش وجدال في كثير من أمور العقيدة الإسلامية، حيث انقسمت الآراء في كثير من الموضوعات فاحتاج كل فريق إلى إيجاد براهين تؤيد رأيه أو حكمه، فكان الاتجاه إلى تراث الأمم الأخرى. خاصة الإغريق، وترجمة كثير من كتب المنطق التي استخدمها علماء المسلمين في تأييد أو دحض الآراء والأحكام المختلفة.

3 ـ معرفة الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني، وذلك لأن الجدل والمناظرة التي كانت تجري بين المسلمين واليهود والمسيحيين بينت للمسلمين أن اليهود والنصارى يستخدمون الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني في مجادلتهم، فكان من الضروري

---

(1) زيغريد هونكة. شمس العرب تسطع على الغرب. ط 2. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. بيروت: منشورات المكتب التجاري، 1969، ص 384.

(2) ناجي معروف. أصالة الحضارة العربية. ط3. بيروت: دار الثقافة، 1975، ص 433.

ترجمة كتب الفلسفة والمنطق ودراستها ثم اتخاذها وسيلة للدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد أعدائها.

4 ـ استخدام العربية في الكتابة، وذلك لأن الأمم غير العربية التي دخلت الإسلام أو انضوت تحت لوائه أصبحت تُدوِّن علومها وآدابها باللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم أساس الدين الإسلامي، أو بسبب انتشار اللغة العربية بين هذه الشعوب، وغلبتها على لغاتهم الأصلية، وتقرباً من العرب الفاتحين، إما للاستفادة من الوظائف والمناصب أو لغيرها من الأمور الأخرى.

5 ـ انتقال العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة، وذلك لأن العلوم والفنون أمر ضروري للتطور الحضاري، لذلك كان لابد من الاستفادة من الأمم ذات الحضارات العريقة. والوسيلة الأولى لذلك الأمر هي ترجمة أو نقل تراثها إلى اللغة العربية. وقد تفاوتت الحاجة إلى العلوم والفنون فبدأت الترجمة بالعلوم الأكثر ضرورة وأهمية، فترجمت الآثار الطبية والكتب التي احتاجها المجتمع الجديد أولاً. والعرب قبل الإسلام لم يهتموا بكثير من الأمور، لأنها لم تشكل عندهم نواة التفكير المدروس. فلما جاء الإسلام حدث تغير كبير في شبه الجزيرة العربية، وتبدلت نظم الحياة وما تبع ذلك من ظهور مجتمع جديد له حاجات ومسؤوليات وآمال يهدف إلى تحقيقها وقيم جديرة بالمحافظة عليها. هذا التغير وهذا التحول الكبير للمجتمع كان من أهم أسباب حركة الترجمة والنقل[1].

بالإضافة إلى هذه الدوافع والأسباب الأساسية، هناك العديد من الدوافع الأخرى التي ساهمت في دفع حركة الترجمة في الحضارة الإسلامية بشكل لا مثيل له في الحضارات السابقة أو المعاصرة للحضارة الإسلامية في ذلك الوقت، منها وجود عدد من المدارس في المناطق المتاخمة للجزيرة التي أصبحت بعد الفتح الإسلامي جزءاً من الدولة الإسلامية، وكان لتلك المدارس أثر كبير في عملية الترجمة، حيث إن

(1) حسين حمادة، ص 45.

كثيراً من المترجمين جاءوا من تلك المدارس كمدرسة الإسكندرية، ومدرسة جنديسابور، ومدرسة الرها وإنطاكية وحران وغيرها؛ ومنها أيضاً عناية الخلفاء والأغنياء بالترجمة والمترجمين، وغير ذلك من الأسباب المتعددة الأخرى.

وقد نتج عن كل هذه الدوافع والأسباب العديد من النتائج الهامة نذكر منها ما يأتي[1]:

1 ـ اهتمام الخلفاء العباسيين عامة بالترجمة، حيث رغب عدد من الخلفاء في ترجمة كتب العلوم والفلسفة وغيرها، وعرف العرب المسلمون علم الكيمياء واهتموا به، وقدموا فيه إضافات عديدة هامة، وكذلك اهتم العرب المسلمون اهتماماً كبيراً بعلوم الطب والفلك والرياضيات والمنطق، وقد أصبحت الترجمة عملاً لكثير من العلماء المسلمين يجدون فيها متعة وراحة.

2 ـ ويقال إن من بين نتائج حركة الترجمة الكبيرة ظهور مهنة الوراقة ـ وهي نسخ الكتب وبيعها ـ والوراقين ببغداد، حيث أصبحت هذه المدينة مركزاً هاماً لنسخ الكتب المترجمة وبيعها للناس في سوق الوراقين. وقد أقبل الناس على شراء الكتب بشكل لا مثيل له في التاريخ، كما اهتم عدد كبير منهم بدراستها وتحليلها ومناقشتها ونقدها في حلقات الدرس ومجالس العلم والأدب العديدة.

3 ـ ومن أهم الصفات أو المزايا التي صاحبت حركة الترجمة في العصر العباسي، هو أخذها بترجمة كتب العلوم كالطب والكيمياء والفلك والرياضيات والمنطق وغيرها وهي العلوم التي احتاج إليها المسلمون في تلك الفترة، ولم يهتموا بترجمة كتب الأدب والشعر والديانات لأن العرب كانت لهم ثروة كبيرة في هذه الموضوعات.

4 ـ نتج عن حركة الترجمة ثم الوراقة الاشتغال بالتعليق والتصحيح لما تمت ترجمته، ثم بعد ذلك التأليف في نفس الموضوعات، وظهور مواضيع جديدة أدت جميعها إلى إنشاء وإقامة المكتبات العلمية العامة والخاصة والمدرسية والطبية وغيرها، وإنشاء دور العلم التي يبحث فيها العلماء في موضوعات

(1) ناجي معروف، ص 434.

العلوم المختلفة. وفي هذه المكتبات ودور العلم وجد العلماء الكتب متوافرة لديهم، بالإضافة إلى كثير من الخدمات الأخرى التي احتاجوا إليها للاشتغال بالعلم تدريساً وتأليفاً وإبداعاً.. إلخ.

وحركة الترجمة و النقل بدأت في العصر الأموي، ويقال إن أول من نقل أو ترجم إلى اللغة العربية هو خالد بن يزيد، الذي أمر بنقل كتب اليونان في الكيمياء، لأنه كان من المشتغلين بهذه الصنعة، وزاد اهتمامه بها بعد أن تأكد من أنه لن يرقى عرش الدولة الأموية، فاتجه إلى العلم والاشتغال به، فترجم له اصطفن القديم كتب الكيمياء اليونانية، وترجمت له كتب أخرى في الطب والنجوم وغيرها. ولكن حركة الترجمة في ذلك العصر كانت محدودة وضيقة، واعتمدت على مجهودات وبوادر فردية كبادرة خالد بن يزيد، وبادرة الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أمر بترجمة أحد كتب الطب وإخراجه للناس للاستفادة منه.

وانتعشت حركة الترجمة من اليونانية والهندية والفارسية والسريانية إلى اللغة العربية، وانتشرت وتوسعت توسعاً كبيراً بعد بداية العصر العباسي، حيث تبّنت الدولة العباسية هذه الحركة، فكانت أعظم فترة ترجمة من لغة إلى لغة أخرى عرفتها الحضارات القديمة السابقة للحضارة الإسلامية. وما إن حل القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ حتى كانت الدولة الإسلامية تملك ثروة ضخمة من تراث الحضارات القديمة مترجماً إلى اللغة العربية، ووضع هذا التراث تحت تصرف العلماء والأدباء والباحثين؛ لدراسته والاستفادة منه في إثراء العلم العربي الإسلامي الذي بدأ في الازدهار، وأخذ في بناء أساس أعظم الحضارات التي شهدها العالم والإنسانية وهي الحضارة الإسلامية.

وقد انطبع عصر الترجمة تلك برغبة ونهم وتعطش للمعرفة بشكل عجيب، وإقبال منقطع النظير على النقل والدرس والتحصيل، وتشجيع ورعاية للعلم والعلماء قلما نقع على مثلها في أي عصر من العصور السابقة وربما اللاحقة[1].

(1) جلال مظهر. حضارة الإسلام وأثرها على الترقي العالمي. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1974، ص 245.

وقد ازدهرت حركة الترجمة ونشطت نشاطاً كبيراً في عصر الخليفة هارون الرشيد، الذي كان عصره عصر ترجمة كتب علوم الفلك والرياضيات بشكل خاص، فترجمت في تلك الفترة أعداد كبيرة من كتب اليونان والهند التي كانت على قدر من الأهمية، والتي كان لها أثر كبير في مستقبل الحضارة الإسلامية[1].

وعندما آلت الخلافة العباسية إلى المأمون، عمل على أن يقيم دعائم حكمه على العلم والحق والعدل والمساواة والتسامح، فجمع حوله وعاشر معظم علماء وأدباء وأفاضل عصره، وزود «بيت الحكمة» بعدد من أساطين الترجمة وأعيانها، بالإضافة إلى العلماء الذين كانوا يعملون بها، وأغدق على الحركة العلمية والأدبية ما لم يغدقه أحد مثله من قبل. وبلغ من اهتمامه بالعلم وتشجيعه، وبالثقافة ورعايتها، حداً جعله يعقد مجلساً أسبوعياً يوزع فيه الجوائز والهدايا والعطايا على الأعمال العلمية والأدبية الممتازة ـ جوائز العلم والأدب ـ ثم زاد اهتمامه بالعلم لذاته فتحقق على أيدي العلماء المسلمين، نتيجة ممارستهم للعلم والبحث العلمي، انتصارات عظيمة، وافتتحوا عصراً جديداً في الحضارة الإسلامية، إذ إنهم انتقلوا بها من طور الترجمة ودراسة أعمال القدماء إلى طور جديد في سلم الحضارة، وهو طور التجديد والابتكار والإبداع[2].

ولا نبالغ إذا قلنا إن عملية جمع العرب المسلمين للتراث اليوناني وغيره وترجمته ونشره بين الناس قد شكلت واحداً من أعظم وأكثر الفصول جاذبية وعظمه في تاريخ مسيرة الإنسان في بحثه الدؤوب عن العلم والمعرفة[3].

والعرب المسلمون في ترجمتهم لتراث الحضارات القديمة لم يكتفوا بعملية الترجمة فقط، بل علقوا على الأعمال التي ترجموها وشرحوها، وردّوا عليها قبل

---

(1) نفس المصدر، ص 246.

(2) نفس المصدر، ص 250.

(3) Rom Landau. The Arab Heritage of Western Civilization. New York: Arab Information Center. 1975. P.9.

أن يقوموا بإبداع أعمالهم الخاصة في مختلف فروع العلم والمعرفة التي عرفوها في تلك الفترة الزاهرة من حياة الأمة الإسلامية.

لقد كانت الترجمة أمراً ضرورياً لمعرفة تطور الحضارة الإنسانية والبدء من النقطة التي وقفت عندها الحضارات المتعاقبة، حتى لا يبدأ المسلمون من نقطة الصفر فتتأخر مسيرة الحضارة الإنسانية عدة قرون. وهذا ما أدركه علماء المسلمين فبذلوا جهودهم لترجمة آثار الحضارات السابقة لهم، ليقفوا على علومها وآدابها ويبدؤوا من حيث انتهت، ويؤسسوا حضارتهم التي تميزت بمزايا لم تتميز بها كثير من الحضارات القديمة، مثل انفتاحها على جميع الأديان والقوميات، فكان هناك العالم النصراني واليهودي والمسلم، يعملون جنباً إلى جنب تحت لواء الدولة الإسلامية الواسعة، والحرية الفكرية التي وجدت فيها، فكان هناك مناخ فكري عظيم ميزها عن غيرها من الحضارات التي سبقتها أو عاصرتها.

ومثال آخر على أهمية الترجمة والنقل في تواصل تطور الحضارة الإنسانية، ما قامت به أوروبا عندما أفاقت من نومها، وأرادت أن تنفض عن كاهلها غبار تخلف وجهل مئات السنين التي عاشتها في ظلام دامس، وطغيان الكنيسة ورجال الدين والإقطاع، فكان أن اتجهت صوب العلوم العربية الإسلامية تترجمها وتقف من خلالها على أحدث المعلومات والأفكار التي توصل إليها علماء المسلمين، ليبدأ علماء أوروبا في إقامة أساس عصر النهضة الأوروبية وبناء الحضارة الحديثة. فترجمت أعظم مؤلفات المسلمين إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى، مثل كتب الطب الشهيرة وكتب الرياضيات والهندسة والكيمياء والفلك والفلسفة والصيدلة وغيرها، التي انتقلت إلى أوروبا عن طريق الأندلس ومراكزه العلمية التي كانت أحد منارات حضارة الإسلام الرائدة. وهكذا كان دور الترجمة من الحضارات القديمة إلى الحضارة الإسلامية، ومن الحضارة الإسلامية إلى أوروبا جسراً تعبر عليه حضارة الإنسان من مكان إلى مكان.

ولابد لنا نحن العرب والمسلمين اليوم إذا أردنا بناء حضارة جديدة أو إعادة مجدنا الغابر من الأخذ بأسباب ترجمة العلوم والتكنولوجيا الحديثة من لغاتها إلى اللغة العربية لنقف من خلالها على أحدث ما قدمه الغرب في مجالات العلوم، ولنبني أبحاثنا العلمية عليها وصولاً إلى المشاركة في استمرارية الحضارة الإنسانية التي تنتقل من أمة إلى أمة أو من شعب إلى شعب، حتى تواصل دورة الحضارة مسيرتها من خلال ما تقدمه هذه الأمة، أو ما يضيفه ذلك الشعب من ابتكارات وإبداعات واختراعات أو اكتشافات لم تعرفها الحضارة التي سبقته. ولنا في حركة الترجمة في الحضارة الإسلامية ثم في عصر النهضة في أوروبا مثال وعبرة.

obeikandl.com

obeikandl.com

ب ـ أعلام الترجمة في الحضارة الإسلامية

اشتهر عدد كبير من المترجمين الذين عملوا على ترجمة ونقل كتب العلوم من اللغات اليونانية والفارسية والهندية والسريانية إلى اللغة العربية، منهم المسلمون ومنهم غير المسلمين الذين عاشوا في رعاية الدولة الإسلامية وتحت ظلها، وشاركوا في بناء الحضارة العربية الإسلامية بما ترجموا أو ألّفوا من كتب في فروع العلم المختلفة.

وكان كثير من المترجمين من النساطرة وبعضهم من الصابئة، بالإضافة إلى المترجمين المسلمين. وكانت نزاهة هؤلاء ومقدرتهم ودقتهم في عملية الترجمة والإشارة إلى المصادر فوق كل انتقاد، مثلهم مثل العلماء المسلمين الذين كانوا يعطون كل مؤلف حقه من الفضل، سواء كان ذلك المؤلف يونانياً أم فارسياً، أم هندياً، أم عربياً مسلماً[1]. وكان الجميع من المشهود لهم بصدق النظر وسعة المعرفة والنزاهة والأمانة والأخلاق الكريمة، فضلاً عن معرفتهم بالموضوع الذي يترجمونه، ومعرفتهم باللغتين المترجم عنها والمترجم إليها معرفة دقيقة وافية، ولذلك جاءت ترجمتهم للمؤلفات في العلوم المختلفة واضحة تمام الوضوح، ومرتبة ترتيباً دقيقاً لا غموض فيه، على الرغم من وجود بعض الترجمات الرديئة التي ترجمها بعض الذين لا يتقنون اللغة المنقول عنها أو اللغة المنقول إليها[2]. ومن أشهر المترجمين نذكر الأسماء التالية:

1. حنين بن إسحاق العبادي:

يعد حنين بن إسحاق العبادي من أبرز المترجمين وأشهرهم، حتى إنه لقب من طرف بعض المؤرخين المحدثين بأمير المترجمين، ويصفه المؤرخ الفرنسي «لكليرك» في

(1) أمين أسعد خير الله. الطب العربي. بيروت: المطبعة الأميركانية، 1946، ص 47.
(2) نفس المصدر، ص 48.

كتابه «تاريخ الطب العربي» بأنه كان «أبرز شخصية في القرن التاسع [الميلادي]، وكان من أكبر العقول المتحلين بأسمى الأخلاق التي يعثر عليها في التاريخ. وإذا كان لم يخلق حركة النهضة في الشرق فليس من مخلوق عمل أكثر منه في سبيلها»[1].

كان حنين طبيباً حسن النظر في التأليف والعلاج، ماهراً في صناعة الكحل - طب العيون - وكان فصيحاً باللغة اليونانية واللغة العربية، شاعراً وخطيباً بارعاً، تعلم العربية على يد الخليل بن أحمد، وهو الذي أدخل كتاب «العين» للخليل إلى بغداد، وكان جليلاً في ترجمته وهو الذي أوضح معاني كتب أبقراط وجالينوس، ولخصها أحسن تلخيص، وأوضح ما كان غامضاً منها[2].

ويقول ابن أبي أصيبعة عن حنين بأنه كان «أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية والدراية بها، مما لا يعرفه غيره من النقلة [المترجمين] الذين كانوا في زمانه، مع ما دأب أيضاً في إتقان العربية والاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين فيها»[3].

وكان لحنين الرغبة منذ الصغر في تعلم الطب، فترك بلدته الحيرة وذهب إلى مجلس يوحنا بن ماسوية، الذي كان من أشهر الأماكن في تعليم الطب في بغداد في تلك الفترة، وكانت رغبة حنين الشديدة في التعليم تدفعه إلى أن يسأل معلمه كثيراً من الأسئلة حتى ضاق به يوحنا ذرعاً. وكان يوحنا يعرف أن حُنيناً من أهل الحيرة وهي مشهورة بالتجارة وأعمال الصيرفة، بينما كان يوحنا من جند يسابور وأهلها من المشهورين بصناعة الطب ويتوارثونه جيلاً بعد جيل، ويكرهون أن يكون غيرهم من أهل صناعتهم. وذات يوم سأل حنين معلمه عن بعض الأمور فغضب يوحنا غضباً

---

(1) لكليرك: نقلاً عن أمين أسعد خير الله، ص 52.

(2) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي. تأريخ الحكماء. بغداد: مكتبة المثنى [عن طبعة طوليوس لبيرت، لايبزغ 1903]، ص 171.

(3) موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس العدي الخزرجي (ابن أبي أصيبعة). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. شرح وتحقيق نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1965، ص 259.

شديداً فقال لحنين: «ما لأهل الحيرة وتعلم صناعة! صر [إذهب] إلى قرابتك حتى يهب لك خمسين درهماً تشتري منها قفافاً صغاراً بدرهم، وزرنيخاً بثلاثة دراهم، واشتر بالباقي قلوساً [حبالاً] كوفيه وقادسية..»[1]، وكان قصد يوحنا أن التجارة أنفع لحنين من تعلم الطب. وطرد يوحنا حنيناً من مجلسه، فخرج باكياً مهموماً ولكنه كان مصراً على تعلم الطب مهما قاسى في سبيل ذلك، فسافر إلى بلاد الروم ليتعلم اليونانية، ثم عاد بعدها إلى العراق حيث تعلم العربية وأتقنها، وكان أستاذه في العربية الخليل بن أحمد، وتعلم الفارسية أيضاً، بالإضافة إلى لغته الأصلية السريانية، فكان يتحدث بأربع لغات ومستعداً لدراسة الطب وغيره.

وعند رجوعه من رحلته هذه حجب أمره حتى يكون مستعداً لمنازلة من لم يعترف له بتعلم الطب. وذات مرة دخل أحد أصدقاء حنين القدامى إلى منزل جبرائيل بن بختيشوع - وكان رئيس أطباء بغداد - فوجد حنيناً عنده، وكان عهده به منذ ثلاث أو أربع سنوات. ويروي هذا الصديق قصة ذلك بقوله: «فوجدت عنده حنيناً وقد ترجم له أقساماً قسمها بعض الروم في كتاب من كتب جالينوس في التشريح، وهو يخاطبه بالتبجيل وبقوله يا ربن حنين وتفسيره ربن المعلم. فاعظمت ما رأيت، وتبين ذلك جبرائيل فيَّ فقال لي: لا تستكثرن ما ترى من تبجيلي هذا الفتى، فوالله لئن مد له في العمر ليفضحن سرجس، وسرجس هذا الذي ذكره جبرائيل هو الرأس عيني، وهو أول من نقل شيئاً من علوم الروم إلى اللسان السرياني، وليفضحن غيره من المترجمين»[2] ثم إن حنيناً طلب من صديقه عدم البوح بأمره حتى يطلب هو منه ذلك. ولما حان الوقت لإظهار أمره بعد مدة من الزمن، أعطى حنين صديقه ما ترجمه لجبرائيل، وطلب منه إعطاءه إلى يوحنا بن ماسويه مع عدم إخباره بمن ترجمها حتى يشتد عجبه فيخبره بذلك، ففعل صديقه وكان اسمه يوسف بن إبراهيم ما طلب منه

(1) نفس المصدر، ص 258.

(2) نفس المصدر، ص 258 - 259.

حنين وذهب إلى يوحنا وسلمه النسخة المترجمة، فكثر عجبه من وقتها وقال: أترى المسيح أوحى من دهرنا هذا إلى أحد؟ فقال له يوسف بأن المسيح لم يوح إلى أحد، وما كان المسيح إلاَّ من الذين يوحى إليهم، فقال يوحنا إن هذه الترجمة لا يقوم بها إلاَّ من كان مؤيداً «بروح القدس» فأجابه يوسف بن إبراهيم بأن تلك الترجمة هي ترجمة حنين بن إسحاق الذي طرده يوحنا في يوم من الأيام، وطلب منه أن يعمل بالتجارة لأنه لا يصلح لمهنة الطب. فطلب يوحنا من الرجل أن يتوسط له عند حنين، وسأله طلب المعذرة والصلح ففعل الرجل ذلك، وعاد حنين فلازم يوحنا وتتلمذ له. واشتغل عليه بصناعة الطب، وترجم له كثيراً من الكتب خاصة كتب جالينوس[1]. وكان حنين يسافر إلى بلاد كثيرة طلباً للمخطوطات التي يرغب في نقلها إلى اللغة العربية، وكان الخلفاء يقربونه لعلمه ونزاهته وإخلاصه وتفانية في عمله.

ومن القصص التي تروى عن نزاهة حنين وأمانته، أن الخليفة أراد أن يمتحنه فأمره بصنع دواء لقتل بعض أعدائه، فكان جوابه أنه لم يتعلم إلاَّ ما ينفع الناس، فحبسه الخليفة مدة سنة، وبعد ذلك أحضره إليه وأراه مالاً كثيراً، وسيفاً وآلة تستخدم في العقوبات، وقال له بأنه لا يزال يصر على الأمر له بصنع الدواء لقتل بعض أعدائه، وإن فعل فإنه يفوز بكل هذا المال وأكثر منه، وإن امتنع قتل شر قتلة. فكان جواب حنين مرة أخرى بأنه لا يحسن إلا ما ينفع الناس، وأنه لم يتعلم غير ذلك فرد الخليفة بأنه سيقتله، فرد حنين بأن له رباً يأخذ بحقه، وأن أمير المؤمنين يظلمه إذ يطلب منه ذلك، فتبسم الخليفة وقال لحنين: إن ذلك لم يكن إلاَّ امتحاناً له على أمانته وإخلاصه، وسأله الخليفة عن سبب امتناعه عن الاستجابة على الرغم من أنه كان مصراً على مكافأته أو قتله، فقال حنين: أن هناك شيئين منعاني من ذلك، فسأله الخليفة عنهما، فأجابه إنهما الدين والصناعة. فالدين يأمرنا دائماً بفعل الخير

(1) نفس المصدر، ص 259.

حتى مع الأعداء فكيف بالأصدقاء والأصحاب، والصناعة [الطب] تمنعنا من الإضرار بالناس، لأنها خلقت ووجدت لفائدتهم ونفعهم وهي مقصورة على مصلحتهم[1].

وكان مولد حنين سنة 194 هجرية ووفاته سنة 264 هجرية في زمن الخليفة المعتمد على الله. ويروي ابن جلجل في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» قصة لموت حنين أخذها عنه أكثر الذين ترجموا لحنين. وكان ابن جلجل قد نقل هذه القصة عن وزير الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر بالله، وكان الوزير قد سمعها من الخليفة نفسه في أحد مجالسه، ومفادها أن حنيناً مات هماً وغماً من جراء ما كان يكيده له أعداؤه وحساده خاصة من الأطباء النصرانيين[2]. وقد أورد ابن أبي أصيبعة قولاً لحنين يعبّر فيه عما كان يلحقه من أعدائه وحساده الذين كان من بينهم الكثيرون مما أنعم عليهم وأحسن إليهم حنين نفسه، فكان أنْ أصابته المحن والمصائب والشرور بسببهم، ويتحدث حنين عن ذلك بقوله: «وأكثر أولئك أهلي وأقربائي، فإنهم أول شروري، وابتداء محني، ثم من بعدهم الذين علمتهم وأقرأتهم وأحسنت إليهم، وأرقدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصنعة، وقربت إليهم علوم الفاضل جالينوس»[3]. ويذكر حنين أن السبب في ذلك من العداوة والبغضاء والحسد هو عَلمه، وما وهبه الله له من علو المرتبة على أهل زمانه.

وكما كان حنين ماهراً في الترجمة، كان كذلك مؤلفاً حاذقاً، ألَّف أكثر من ثمانين كتاباً في الطب وغيره، بالإضافة إلى ما قام به من ترجمة لكتب الطب والفلسفة اليونانية وهي تعد بالعشرات. ومن مؤلفات حنين التي نالت شهرة كبيرة، وكانت محل دراسة وتعليق لكثير من الأطباء العرب، كتاب «العشر مقالات في

---

(1) نفس المصدر، ص 261.

(2) أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ابن جلجل). طبقات الأطباء والحكماء. تحقيق فؤاد سيد. القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص 69 ـ 70.

(3) ابن أبي أصيبعة، ص 264.

العين» وكتاب «مسائل حنين». وكتاب «العشر مقالات في العين» يتكون من إحدى عشرة مقالة، كل مقالة تناولت جزءاً من أجزاء العين وصفاً وعلاجاً مثل:

- المقالة الأولى يذكر فيها طبيعة العين وتركيبها.
- المقالة الثانية يذكر فيها طبيعة الدماغ.
- المقالة الثامنة يذكر فيها أجناس الأدوية للعين خاصة وأنواعها.
- المقالة التاسعة يذكر فيها مداواة أمراض العين[1].

وأغلب كتب حنين ألّفها على شكل مسائل وإجابات عنها.

2. آل بختيشوع:

اشتهرت أسرة بختيشوع باشتغالها بالطب مدة طويلة من الزمن، وقد اشتهر من هذه الأسرة أربعة أطباء، هم: جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع، وبختيشوع بن جورجيس، وجبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس، وبختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع.

أ- جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع: وهو مؤسس هذه الأسرة، وكان يعلم الطب في مدرسة جنديسابور للطب. فلما مرض المنصور عام 148 هجرية عالجه من مرضه، فكانت له المنزلة الكبيرة عنده، ونال منه الأموال الكثيرة. وقد ترجم جورجيس كثيراً من الكتب للمنصور من اليونانية إلى العربية. وكان جورجيس يعمل إلى جانب تعليم الطب رئيساً لأطباء جنديسابور، وعندما استدعاه الخليفة المنصور لمعالجته رفض بحجة إشرافه على مستشفى جنديسابور، ولكنه أكره على الذهاب للخليفة، فأوصى ابنه بختيشوع بتدبير شؤون المستشفى، وذهب إلى بغداد لعلاج الخليفة المنصور. وبعد مدة تزيد على السنتين طلب الخليفة من جورجيس أن يرسل من يحضر ابنه، لأنه سمع أنه طبيب ماهر مثل أبيه، فقال جورجيس للخليفة: إن جنديسابور محتاجة إليه وإذا تركها فسد أمر المستشفى، وأخبره بأن معه بعض تلاميذه الذين علمهم حتى صاروا مثله في صناعة الطب،

(1) نفس المصدر، ص 271-272.

فأمر الخليفة بإحضارهم ليختبرهم، ومنهم عيسى بن شهلا الذي أصبحت له اليد الطولى فيما بعد، وبسط يده على الأساقفة والمطارنة، وكان يأخذ أموالهم ويهددهم إذا لم يرسلوا له ما طلبه منهم[1].

وفي سنة 152 هجرية مرض جورجيس مرضاً قاسياً، فطلب من الخليفة العودة إلى جنديسابور لرؤية أهله ويموت هناك، وجاءه الخليفة ودعاه إلى الإسلام ـ لأنه كان نصرانياً ـ فرفض قائلاً: «أنا على دين آبائي أموت، وحيث يكون آبائي أحب أن أكون. إما في الجنة أو في جهنم»، فضحك الخليفة من قوله وأمر أن يحمل إلى بلده وأعطاه عشرة آلاف دينار، وأرسل معه أحد الخدم وقال له: إن مات في طريقه فاحمله إلى منزله ليدفن هناك كما آثر، ولكن جورجيس وصل إلى أهله حياً[2].

ب ـ بختيشوع بن جورجيس: وهو خليفة والده في الطب وفي رئاسة مستشفى جنديسابور.

وفي عام 171 هجرية مرض الخليفة هارون الرشيد فطلب أن يستدعى له طبيب ماهر يستطيع معالجته من علته التي حار فيها الأطباء، فأرسل في طلب بختيشوع من جنديسابور، فلما حضر بين يدي الرشيد، أراد أن يختبره فطلب من خدمه إحضار بول دابة [حيوان]، فأحضر الخدم ذلك، فلما رآه بختيشوع عرف أن الخليفة يختبره وأن هذا بول حيوان وليس بول إنسان وأخبر الخليفة بذلك، ولما تأكد الخليفة من قدرته ومهارته في الطب أغدق عليه وأكرمه «وخلع عليه خلعة سنية، ووهب له مالاً وافراً وقال له: تكون رئيس الأطباء ولك يسمعون ويطيعون»[3].

ج ـ جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس: وهو ابن بختيشوع وحفيد جورجيس، كان مشهوداً له بالفضل، جيد التصرف في العلاج والمداواة، له منزلة

---

(1) نفس المصدر، ص 184 ـ 185.

(2) نفس المصدر، ص 195.

(3) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، ص 101.

رفيعة عند الخلفاء، فكانوا كثيري الفضل والإحسان إليه، وجمع منهم أموالاً لم يجمعها طبيب غيره من الأطباء.

وسبب التحاقه بخدمة الخلفاء العباسيين، أنه في سنة 175 هجرية مرض جعفر البرمكي - ابن يحيى بن خالد البرمكي - فطلب الرشيد من بختيشوع بن جورجيس معالجته، فكان أن سأله جعفر أن يختار له طبيباً ماهراً يخدمه، فأجابه بختيشوع بأن ابنه جبرائيل أكثر منه مهارة، ولا يوجد من يدانيه في الطب، فطلب منه إحضاره، فحضر جبرائيل وعالج جعفراً فشفي بعد ثلاثة أيام، فأحبه جعفر وأكرمه، وكان يأكل ويشرب معه ولا يفارقه، حتى كان ذات يوم مدت إحدى محظيات الرشيد يدها فبقيت على ما هي عليها منبسطة ولا تستطيع ردها إلى مكانها، وحار في علاجها الأطباء ولم يجدوا لها علاجاً نافعاً، فتحير الرشيد من ذلك وانزعج، فأشار جعفر على الرشيد بدعوة جبرائيل ومساءلته في شأن هذا المرض فلعل عنده علاجاً له. فأمر الرشيد بإحضار جبرائيل، فحضر وسأله الرشيد عن بعض الأمور في الطب فأجاب عنها، ثم إنه عالج المحظية بحيلة جعلتها تبسط يدها كما كانت وتمدها وتبسطها عدة مرات؛ أي استطاع جبرائيل أن يعالج ما أصاب يد المحظية، فكافأه الرشيد بخمسمائة ألف درهم، وجعله منذ ذلك الحين رئيساً على جميع الأطباء.

وأحب الرشيد جبرائيل ووثق به، حتى إن الرشيد كان يقول لأصحابه من كانت له عندي حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأني أفعل ما يشيره علي وما يطلبه مني[1]. وقد بقي جبرائيل في خدمة الرشيد مدة ثلاثة وعشرين عاماً، وكذلك خدم البرامكة مدة طويلة أيضاً. وخلال هذه المدة من خدمته للرشيد والبرامكة جمع مبالغ طائلة من المال قدرت بأكثر من ثمانية وثمانين [88] مليون درهم[2].

---

(1) ابن أبي أصيبعة، ص 188.

(2) أمين أسعد خير الله، ص 58 - 59.

ولجبرائيل من المؤلفات «رسالة إلى المأمون في المطعم والمشرب»، و«كتاب المدخل إلى صناعة المنطق» و«كتاب في الباه» و«رسالة مختصرة في الطب» و«كناش» و«كتاب في صنعة البخور».

د ـ بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع: وكان طبيباً ماهراً رفيع المنزلة، بلغ من المهارة في الطب وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من الأطباء المعاصرين له، حتى إنه كان يتشبه بالخليفة المتوكل في اللباس والفرش وغيره. ويقال إن بختيشوع بن جبرائيل كان أول من استخدم فكرة التكييف بالهواء البارد والتدفئة بالهواء الساخن. حيث أورد ابن أبي أصيبعة قصة ذلك نقلاً عن أبي محمد بدر بن أبي الأصبع الكاتب، حيث قال:

حدثني جدي، قال: دخلت إلى بختيشوع في يوم شديد الحر وهو جالس في مجلس مخيش بعده طاقات من الخيش؛ طاقان ريح بينهما طاق أسود وفي وسطها قبة عليها جلال [أكسية] من قصب مظهر بدبيقي [دبيق بلدة في مصر] قد صبغ بماء الورد والكافور والصندل، وعليه جبة يماني سعيدي مثقله، ومطرف قد التحف به، فعجبت من زيه، فحين حصلت معه في القبة نالني من البرد أمر عظيم، فضحك وأمر لي بجبة ومطرف وقال: يا غلام، اكشف جوانب القبة، فكشف فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان إلى مواضع مكبوسة بالثلج، وغلمان يروحون ذلك الثلج فيخرج منه البرد الذي لحقني. . ولما كان صلب الشتاء دخلت عليه يوماً والبرد شديد، وعليَّ جبة محشوة وكساء، وهو جالس في طارمة في الدار على بستان في غاية الحسن، وعليها سمور قد ظهرت به، وفوقه جلال حرير مصبغ، ولبود مغربية وأنطاع أدم يمانية، وبين يديه كانون فضة مذهب مخرق، وخادم يوقد العود الهندي، وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة. فلما حصلت معه في الطارمة وجدت من الحر أمراً عظيماً، فضحك وأمر لي بغلالة قصب، وتقدم بكشف جوانب الطارمة فإذا مواضع لها شبابيك خشب بعد شبابيك حديد، وكوانين فيها

فحم الغضا [نوع من الشجر]، وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق كما تكون للحدادين[1].

وتوفي بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع يوم الأحد لثمان بقين من صفر سنة 256 هجرية، وخلّف ولداً وثلاث بنات، وكان الوزراء يضايقونهم ويطالبونهم بدفع الأموال فتفرقوا[2].

3. يوحنا بن ماسويه:

هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه، كان طبيباً ماهراً فاضلاً ومقدماً عند الخلفاء، وعالماً مصنفاً، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وهو مسيحي المذهب. ويروي ابن جلجل أن الخليفة هارون الرشيد قلد يوحنا ترجمة الكتب القديمة، خاصة كتب الطب، مما وجده بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين غزاها المسلمون، وعينه أمينا على حركة الترجمة[3]. وهناك من يرى أن يوحنا دخل بغداد زمن الخليفة المأمون ولم يعاصر الرشيد، وقد عينه المأمون رئيساً لبيت الحكمة. وكان يوحنا يعقد مجلساً للنظر في العلوم يجتمع فيه أهل العلم والأدب، وكان يدرّس ويجتمع إليه كثير من التلاميذ يأخذون العلم على يديه[4]. وكان يوحنا مرحاً ذا دعابة شديدة حتى إن بعض الناس كانوا يحضرون مجلسه من أجل ذلك، ووردت عنه كثير من النوادر والطرائف، منها أن رجلاً شكا إليه إصابته بالجرب، فأمره بفعل بعض الأمور فأجابه بأنه فعلها، فأمره بشرب بعض المواد المطبوخة، فأجابه بأنه شربها، فأمره بشرب نوع من الشراب، فأجابه بأنه فعل ذلك، فقال له يوحنا لم يبق شيء مما نصح به الأطباء إلاَّ وفعلته، وهناك شيء لم يذكره أبقراط ولا

---

(1) ابن أبي أصيبعة، ص 203 ـ 204.

(2) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، ص 104.

(3) ابن جلجل، ص 65.

(4) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، 382.

جالينوس، وقد رأينا أنه يقوم على التجارب فاستعمله، فتلهف الرجل لمعرفة ذلك قائلاً: أرجو أن ينجح علاجك إن شاء الله تعالى، وسأله عما هو، فقال يوحنا «إبتع زَوْجَي قراطيس وقطعهما رقاعاً صغاراً واكتب في كل رقعة رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية وألْصِق نصفها في المسجد الجامع الشرقي بمدينة السلام، والنصف الثاني في المسجد الغربي، وفرقها في مجالس الناس يوم الجمعة فإني أرجو أن ينفعك الدعاء إذا لم ينفعك الدواء»[1].

ويروى ابن أبي أصيبعة أن وفاة يوحنا بن ماسويه كانت بسُرَّ من رأى يوم الاثنين، لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة 243 هجرية وذلك في خلافة المتوكل. وليوحنا عدة كتب منها «كتاب محنة الطبيب»، و«كتاب السموم وعلاجها»، و«كتاب دغل العين»، و«كتاب التشريح» و«كتاب الجنين» و«كتاب البرهان» و«كتاب الصوت والبحة» و«كتاب القولنج» و«كتاب النوادر الطبية»[2].

4. إسحاق بن حنين:

هو أبو يعقوب إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي، كان في منزلة أبيه في الترجمة ومعرفة اللغات وفصاحته فيها، ولكن ترجمته للكتب الطبية كانت قليلة جداً مقارنة بما قام بترجمته من كتب أرسطو في الحكمة وشروحها إلى اللغة العربية. وقد خدم إسحاق الخلفاء الذين خدمهم أبوه، وكان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وملازماً له، ومتقدماً عنده، حتى إنه كان يفضي إليه بأسراه الخاصة[3]. ويذكر شمس الدين الشهرزوري في كتابه «تاريخ الحكماء» أن إسحاقاً كان ممن حسن إسلامه، وقد أشركه الخليفة المكتفي بالله في بيعة ابنه[4]. وكان إسحاق في

---

(1) نفس المصدر، ص 389.

(2) ابن أبي أصيبعة، ص 255.

(3) نفس المصدر، ص 274.

(4) شمس الدين الشهرزوري. تاريخ الحكماء: نزهة الأرواح وروضة الأفراح. تحقيق عبد الكريم أبو شويرب. طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1988، ص 292.

آخر عمره قد أصيب بالفالج وكان سبباً في وفاته، وقد توفي ببغداد في شهر ربيع الآخر عام 298 هجرية وذلك في خلافة المقتدر بالله. ولإسحاق بن حنين عدة كتب منها «كتاب الأدوية المفردة» و«كتاب صنعة العلاج بالحديد» و«كتاب إصلاح الأدوية المسهلة» و«كتاب آداب الفلاسفة ونوادرهم» و«كتاب أيساغوجي» و«مقالة في التوحيد».

5. ثابت بن قرة:

وهو من الصابئة المقيمين بحران. وكان يعمل في الصيرفة، ثم اصطحبه محمد بن موسى بن شاكر عندما عاد من بلاد الروم لأنه كان معجباً بفصاحته، وتعلم ثابت على يديه. ثم إن محمد بن موسى قدمه إلى الخليفة المعتضد الذي جعله من بين منجمي القصر. ووصل درجة من العلم في الطب وغيرها من العلوم الأخرى، خاصة الفلسفة لم يصلها أحد في زمانه. وكان ثابت جيد النقل (الترجمة) إلى اللغة العربية، وكان يجيد السريانية إجادة تامة بالإضافة إلى معرفته لبعض اللغات الأخرى[1]. ومن القصص التي تروى عن علمه وعلو منزلته أن ثابتاً كان يتنزه مع الخليفة المعتضد في بستان بدار الخليفة للرياضة، «وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يتمشيان، ثم نثر المعتضد يده من يد ثابت بشدة، ففزع ثابت، فإن المعتضد كان مهيباً جداً، فلما نثر يده من يد ثابت قال له: يا أبا الحسن، وكان في الخلوات يكنيه وفي الملأ يسميه ـ سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يَعْلُون ولا يُعلَوْن»[2]. وهذه القصة تدل على احترام الخلفاء للعلماء لأن العلم يعلو ولا يُعلى عليه. وقد ولد ثابت سنة 221 هجرية وتوفي سنة 288 هجرية. ومن أقوال ثابت بن قرة:

---

(1) ابن أبي أصيبعة، ص 295.

(2) نفس المصدر، ص 296.

«راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة اللسان في قلة الكلام»[1] وقد كتب ثابت بن قرة أكثر من 140 كتاباً ورسالة بالعربية والسريانية في كل العلوم.

6. قسطا بن لوقا البعلبكي:

كان بارعاً في كثير من العلوم كالطب والهندسة والفلسفة والموسيقى وغيرها، وكان فصيحاً باللغة اليونانية متقناً للغة العربية، ترجم عدداً من الكتب اليونانية القديمة إلى اللغة العربية، وتوفي بأرمينية[2]. وله كثير من المؤلفات في الطب والفلك والهندسة. وقد وصفه القفطي في «تاريخ الحكماء» بقوله إنه «فيلسوف شامي نصراني في الملة الإسلامية ثم في أيام بني العباس دخل إلى بلاد الروم وحصّل من تصانيفهم الكثير وعاد إلى الشام واستدعي إلى العراق ليترجم كتباً ويستخرجها من لسان يونان إلى لسان العرب، وعاصر يعقوب بن إسحاق الكندي، وكان قسطا متحققاً بعلم العدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية، ماهراً في صناعة الطب»[3]. وذكر ابن جلجل بأن قسطا عاصر الخليفة العباسي المقتدر بالله.

بالإضافة إلى ذلك وجد الكثير من المترجمين الذين عملوا على ترجمة الكتب من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية إلى اللغة العربية؛ منهم أبو زكريا يحيى بن عدي الذي ترجم بعض كتب أفلاطون وأرسطو، وأبو بشر متّى بن يونس القنائي الذي ترجم عدداً من الكتب لأرسطو، وأبو علي بن زرعة وهو من المترجمين الجيدين وقد ترجم من السريانية إلى العربية، ومنهم كذلك يحيى بن البطريق، وقد ترجم عدداً من كتب الفلسفة ولكنه لم يكن جيداً في ترجمته لأنه لم يتقن العربية جيداً، والحجاج بن مطر، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي، وتيوفيل بن توما الرهاوي، وحبيش الأعسم ابن أخت حنين بن إسحاق، وكان يسير على نفس طريقة حنين في ترجمته وكلامه ويسلك نفس مسلكه، ومن حنين تعلم الطب.

---

(1) نفس المصدر، ص 298.

(2) ابن النديم. الفهرست. بيروت: دار المعرفة، [د. ت]، ص 410.

(3) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، ص 262.

obeikandl.com

■ 5 ■
حركة التأليف والنشر في الحضارة الإسلامية

اهتم العلماء والأدباء العرب والمسلمون بتأليف الكتب في شتى فروع المعرفة. وكان بينهم من يقضي أغلب وقته في التفكير في مسائل العلوم المختلفة والكتابة فيها. ويحدثنا التاريخ الإسلامي عن العديد من العلماء المسلمين الذين لم يضعوا القلم من أيديهم حتى آخر رمق في حياتهم.

وقد وصلت حركة التأليف والكتابة إلى ذروتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وازدهرت ازدهاراً عظيماً في تلك الفترة من التاريخ الإسلامي. وكان أحد أسباب أو عوامل ازدهارها إقامة صناعة الورق أو الكاغد في بغداد وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى فيما بعد منذ عهد الخليفة هارون الرشيد.

كذلك ظهرت حرفة أو صنعة الوراقة، وهي نسخ الكتب وبيعها للناس، حيث كان لها أثر كبير في تقدم حركة التأليف والنشر عند المسلمين. وقد صارت الوراقة فناً رائجاً اشتغل به العديد من الناس ممّن كانت لديهم القدرة على الكتابة وما يتصل بها نسخاً وتجليداً وغير ذلك.

وقد اشتهرت بغداد في عصر الازدهار الحضاري للإسلام بعدد دكاكين أو حوانيت الوراقين، حيث يروى أنه كان بها أكثر من مائة دكان للوراقة في القرن الثالث الهجري. وقد ازدهرت مهنة الوراقة وتقدمت بشكل كبير بسبب حب المسلمين للقراءة واقتناء الكتب. ولم تكن دكاكين الوراقين متاجر تبيع الكتب فقط، بل كانت أيضاً ملتقيات للعلماء والأدباء والشعراء ومنتديات لطلاب العلم والمعرفة. وكان يعمل بهذه المهنة عدد كبير من العلماء والأدباء مثل ابن النديم الذي كان يملك

أحد دكاكين الوراقة في بغداد، وكان صديقاً للعديد من العلماء والشعراء والأدباء، وقد جمع ابن النديم كتابه الذي اشتهر به «الفهرست» الذي يحوي أسماء جميع الكتب التي ظهرت في اللغة العربية تأليفاً وترجمة حتى عام 377 هجرية من خلال معرفته الشخصية بعدد كبير من المؤلفين والمترجمين[1]. وابن النديم كان كغيره من بائعي الكتب، تلقى تربية علمية واسعة، وسمع محاضرات الأعلام من فلاسفة وعلماء وأدباء عصره، وزار منازلهم وتعرف بالأوساط العلمية التي انتشرت في شكل جماعات ومدارس في كل أنحاء البلاد العربية في ذلك الوقت. وبسبب وجود هذا العدد الكبير من الوراقين أو ناشري الكتب في بغداد في تلك الفترة، فقد كان طلاب العلم والمثقفون يفدون عليها من كل أنحاء العالم الإسلامي، للبحث عن الكتب التي تصدر حديثاً، للانتفاع بما تحويه من معلومات وأفكار وآراء.

وقد اشتهر العلماء والأدباء المسلمون بكثرة التأليف في العديد من أنواع العلوم والفنون والآداب، فكان العالم يؤلف في الطب والفلسفة والمنطق والفلك والموسيقى والحساب والسياسة وغير ذلك من المعارف الأخرى. ويحدثنا ابن النديم في كتاب «الفهرست» عن الكثير من الأسماء اللامعة التي اشتهرت بكثرة التأليف، فقد ذكر أكثر من مائة كتاب من تأليف أبي بكر الرازي الطبيب والفيلسوف المسلم الكبير، وأورد كذلك أكثر من مائتين وثلاثين كتاباً للكندي، منها أكثر من عشرين في الطب، كما ذكر أكثر من مائتي كتاب وغيرها من الرسائل لجابر بن حيان[2].

ومن بين العلماء والأدباء الذين اشتهروا بكثرة مؤلفاتهم الجاحظ، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وابن سينا، والطبيب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، وعلي بن رضوان، ويوحنا بن ماسويه، والأصمعي، وغيرهم كثير.

---

(1) انظر: ابن النديم. الفهرست. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، [د. ت].

(2) انظر: نفس المصدر.

وليست كثرة المؤلفات والكتب من الأشياء الغريبة والعجيبة للمجتمع الإسلامي الذي أخذ بأسباب العلم والمعرفة في تلك الفترة المجيدة من تاريخه، ولكن الأمر الذي يلفت الانتباه هو أن الكثير من الكتب كان يقع في عشرات الأجزاء أو المجلدات الضخمة. ويكفي أن نعطي أمثلة لبعض المؤلفات مثل كتاب «العقد الفريد» لأحمد بن عبد ربه الأندلسي، الذي يتكون من خمسة وعشرين كتاباً في كل كتاب جزءان، أي خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً. وقد سمى ابن عبد ربه كل كتاب من «العقد الفريد» باسم من أسماء الجواهر الثمينة التي كونت عقداً فريداً رائعاً، مثل: كتاب اللؤلؤة في السلطان، وكتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد، وكتاب الياقوتة في العلم والأدب، وكتاب الجوهرة في الأمثال، وكتاب الزمردة في المواعظ والزهد.. إلخ. ويعتبر «العقد الفريد» من الأعمال الموسوعية التي ذاعت شهرتها منذ أن كتبه ابن عبد ربه حتى وقتنا الحاضر[1].

ومنها أيضاً كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وهو موسوعة أدبية فنية ثمينة ويقع في عشرين جزءاً. وقد وصف الصاحب بن عباد كتاب «الأغاني» بأنه مشحون بالمحاسن المنتخبة والفقَر الغريبة، فهو للزاهد فكاهة وللعالم مادة وزيادة، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة، وللبطل رجلة وشجاعة، وللمتطرف رياضة وصناعة، وللملك طيبة ولذاذة. وقد قضى أبو الفرج الأصفهاني في جمع مادة الكتاب وتبويبها وإعدادها حوالي خمسين سنة. ويعد كتاب «الأغاني» من أشهر كتب الأدب والمؤلفات في الحضارة الإسلامية[2]. ومنها أيضاً كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، ويتكون من أربعة عشر مجلداً، حوت معلومات قيمة عن عدد

---

(1) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان. القاهرة: دار الفكر، [د. ت]، مج 1، ص 4.

(2) انظر: أبو الفرج الأصبهاني. كتاب الأغاني. بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، [عن طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر 1963].

كبير من العلماء والأدباء وغيرهم، ويعتبر هذا الكتاب واحداً من أهم وأدق كتب التراجم وأصدقها بصفة عامة، وهو عمل مهم لكل متأدب وضروري لكل مؤرخ[1].

ومن هذه الأمثلة أيضاً كتاب «معجم الأدباء» لياقوت الحموي، ويتكون من عشرين جزءاً. وهو من أشهر كتب التراجم والسير التي ترجمت للأدباء وغيرهم في العالم الإسلامي منذ القرن الأول الهجري وحتى زمان ياقوت مؤلف الكتاب. وقد بلغ عدد التراجم فيه حوالي ألف وخمسة وستين ترجمة لأعلام الأدب والمعرفة[2]. ومنها أيضاً كتاب «وفيات الأعيان وأبناء الزمان» لابن خلكان، وهو من كتب التراجم العامة المشهورة، ولا يدانيه شهرة إلاّ كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي. ويضم «وفيات الأعيان..» خمسمائة وخمساً وخمسين ترجمة لأعلام المسلمين والعرب من بخارى وسمرقند وحدود الصين شرقاً إلى المغرب والأندلس غرباً[3].

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة، هناك مئات الكتب والمؤلفات ظهرت في شكل أعمال موسوعية ضخمة منها الأعمال التي تتحدث عن الأدب والعلم والثقافة بصفة عامة، ومنها الأعمال التي تتخصص في مجال واحد كالطب أو التاريخ، أو الفلسفة، ومنها ما يتناول جزءاً أو فرعاً من علم معين. ومن هذه الأعمال على سبيل المثال لا الحصر، كتاب «الحاوي في الطب» للرازي، الذي يعتبر من أعظم الموسوعات الطبية في تاريخ الحضارة الإنسانية حتى القرن الثامن عشر، وكتاب «القانون» لابن سينا، وهو أيضاً من الأعمال الهامة في ميدان الطب، ومن الأعمال المرجعية الطبية التي اعتمدت عليها أوروبا لعدة قرون. فالحاوي موسوعة ضخمة

---

(1) انظر: الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتاب العربي. [د. ت]. 12 مج.

(2) انظر: ياقوت الحموي. معجم الأدباء. ط2. بيروت: دار المستشرق. [طبعة مرجليوث 1922]. وهناك عدة طبعات أخرى لهذا العمل.

(3) انظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968.

شاملة جمع فيها الرازي بين الطب في الهند وطب اليونان ثم أضاف إليها تجاربه وملاحظه السريرية، وتكلم فيها عن العديد من الأمراض مثل: أمراض الرأس وأوجاع العصب، وأمراض العيون والأنف والأذن، وأمراض الأسنان؛ مع تشخيص الأمراض ووصف العلاج المناسب لكل مرض منها. أما القانون لابن سينا، فهو موسوعة طبية شاملة ضخمة وضع فيها ابن سينا معارف القدماء في الطب ومعارف المعاصرين له في شكل منسق واضح، حتى إن الأطباء في عصره والقرون التي بعده استغنوا بالقانون عن العديد من المؤلفات الطبية الأخرى. وترجم «الحاوي» «والقانون» إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى عدة مرات، واعتمدت عليهما مدارس الطب في أوروبا في التدريس لفترة طويلة من الزمن.

وإذا كانت حركة التأليف والوراقة قد ازدهرت في العصر العباسي ووصلت إلى قمتها في تلك الفترة، فإن التدوين قد بدأ منذ بداية العهد الإسلامي المبكر، الذي بدأ بتدوين القرآن الكريم ثم تدوين الحديث الشريف، ثم العلوم والمعارف الأخرى. وما إن جاء العصر العباسي حتى «كانت موجة التأليف قد تضخمت، ودائرته قد اتسعت، وأصوله قد تفرعت، وفروعه قد أثمرت، وهذه سنّة النشوء يبدأ الشيء صغيراً ثم يتدرّج مع الأيام نمواً. وكلما مرت الأيام كانت خطوات التقدم أوسع من ذي قبل»[1].

وقد يبلغ المرء عجباً حينما يقرأ عن علماء وأدباء لم يتخلوا يوماً وأحداً في حياتهم عن المطالعة والكتابة. وتاريخ الكتابة والتأليف عند العرب يحدثنا عن العديد منهم، مثل الأمير موسى بن محمد بن عبد الله بن سعيد، الذي كان أميراً على الجزيرة الخضراء بالأندلس، حيث يورد ابنه على بن موسى شيئاً عن أخبار والده في هذا المجال قائلاً: «ومما شاهدت من عجائبه ـ أي عجائب والده موسى ـ أنه عاش سبعاً

(1) مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. ط3. بيروت: دار العلم للملايين، 1979، ص 55.

وستين سنة، ولم أره يوماً تخلى عن مطالعة كتاب أو كتابة ما بخَلَده، حتى إن أيام الأعياد كان لا يخليها من ذلك، ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب [الكتابة]، فقلت له يا سيدي: أفي هذا اليوم لا تستريح فنظر إليَّ كالمغضب وقال: أظنك لا تفلح أبداً، أترى الراحة في غير هذا؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولوددت أن الله تعالى يضاعف عمري حتى أتم كتاب (المغرب) على غرضي»[1].

وقد تنوعت المؤلفات التي ألفها العلماء والأدباء وكتّاب العرب والمسلمين منذ بداية حركة التأليف، بتنوع المجالات والموضوعات التي كانت معروفة في كل فترة من فترات الحضارة الإسلامية، فكانت هناك المؤلفات العامة التي تجمع عدة موضوعات في عمل واحد، والمؤلفات الأدبية، والمؤلفات الشعرية التي تتحدث عن الشعر والشعراء وأخبارهم وطبقاتهم، والمؤلفات الدينية التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية من فقه وعبادات وتفسير وأحكام وغيرها، والمؤلفات التاريخية التي تسجل الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى العصر الذي عاش فيه المؤلف أو المؤرخ، وكتب التراجم التي تترجم للعلماء والأدباء والشعراء والفقهاء وغيرهم بشكل عام، أو لكل طبقة من الطبقات، والمؤلفات الببليوغرافية التي ترصد حركة التأليف والوراقة ـ النشر ـ بداية بابن النديم في كتابه «الفهرست» ووصولاً إلى حاجي خليفة في «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وما قبله وما بعده، والمؤلفات العلمية المتنوعة مثل المؤلفات في الطب والصيدلية، ومؤلفات الكيمياء والفلك والرياضيات والهندسة والحيل (الميكانيكا) والمنطق، والمؤلفات الفلسفية المتعددة، وكتب الجغرافيا والرحلات، ومؤلفات الفكاهة والطرائف والنوادر، وكتب اللغة والمعاجم اللغوية العديدة.

---

(1) أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968، جـ 2، ص 334.

وفي كل فرع من هذه الفروع ألّف المؤلفون المسلمون آلاف العناوين، حتى إننا نجد أصحاب العلم الواحد ومؤلفاتهم التي لا تحصى كثرة قد خصصت لها كتب بمفردها مثل: كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، الذي يعتبر سجلاً لأطباء الحضارة الإسلامية والحضارات السابقة لها منذ أن وجد الطب ومؤلفات الأطباء، وكتاب «تأريخ الحكماء» لجمال الدين القفطي الذي يؤرخ فيه لعدد كبير من الأطباء ويذكر ما ترجموه أو كتبوه، وكتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل، وكتاب «تاريخ الحكماء أو نزهة الأرواح وروضة الأفراح» لشمس الدين الشهرزوري، وهما من المؤلفات التي تترجم لعدد من الأطباء من عرب ومسلمين وهنود وفرس ويونان، وكتاب «طبقات الشعراء» لابن سلام الجمحي، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة، و«طبقات الشعراء» لابن المعتز، و«معجم الشعراء» للمرزباني وغيره من الذين تحدثوا عن صناعة الشعر، وقسموا الشعراء إلى عدة طبقات، والمؤلفات التي تناولت حياة العديد من العلماء وآثارهم العلمية والفكرية مثل: كتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

وتخبرنا المصادر التاريخية لحركة التأليف في الحضارة الإسلامية بأن عدداً كبيراً من المؤلفات النفسية الضخمة التي ذاع صيتها وشهرتها، والتي عرفت بالموسوعات أو الأعمال الموسوعية قد ظهرت في العصر المملوكي الأمر الذي جعل الكثيرين يطلقون على تلك الفترة «عصر الموسوعات العلمية»، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ذلك العصر لم يكن عصر تخلف، كما أراد البعض أن يصفه. وبعد تخريب التتار لتراث الإسلام الفكري والعلمي والكتب الثمينة التي رمى بها المغول في نهر دجلة، حتى إن مياهه تغير لونها بسبب المداد، وبقيت كذلك لفترة طويلة من الزمن، كان العصر المملوكي عصر إحياء ما أندثر من تراثنا الفكري، وتسجيل ما كان مهدداً بالزوال من آثارنا الفكرية والعلمية، بالإضافة إلى

أنه كان أيضاً عصر عطاء وإبداع وبناء وابتكار، ويدل على ذلك ظهور عدد من العلماء الكبار في ذلك العصر مثل: العلامة ابن خلدون، وابن منظور، والمقريزي، والقلقشندي وغيرهم من الأسماء الكثيرة[1]. ومن الأمثلة على الأعمال الموسوعية التي ظهرت في العصر المملوكي نذكر الأعمال التالية:

1 ـ «لسان العرب» لابن منظور: ويعتبر أكبر وأثمن قاموس عرفته اللغة العربية حتى وقتنا الحاضر. يقع في عشرين مجلداً ضمت حوالي ثمانين ألف مادة. ويعتبر من أهم المصادر اللغوية التي يرجع إليها كل دارسي اللغة العربية وآدابها.

2 ـ «نهاية الأرب في فنون العرب» لأحمد بن عبد الوهاب القرشي التيمي البكري المعروف بالنويري: وهو عمل موسوعي ضخم حوى الكثير من العلوم والأخبار التاريخية وموضوعات الأدب، وظواهر من الكون، ونماذج من أنظمة الحكم.

3 ـ «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العمري: وهذه الموسوعة قد نالت حظاً كبيراً من حيث اهتمام الدارسين والأدباء لها والاحتفاء بها. وقد ضمت هذه الموسوعة معلومات كثيرة في موضوعات التاريخ والآثار والعمارة والمساجد والكنائس والمعابد والأدب وغيرها من الموضوعات الأخرى. ومعلوماتها بعضها ذات صبغة جغرافية تعتبر على قدر من الأهمية للمهتمين أو المتخصصين في علم الجغرافيا بمختلف فروعها، بالإضافة إلى موضوع الأدب، خاصة في جانب منه وهو جانب «الديارات».

4 ـ «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لأحمد بن علي القلقشندي: وهو موسوعة أدبية جامعة، تبحث في مقومات صناعة الإنشاء، كما تجمع الأصول الثقافية التي لابد من معرفتها لمحترفي هذه الصناعة.

5 ـ «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ المعروف بالخطط المقريزية» لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي: وهو موسوعة متخصصة في التاريخ، كما أنه يعدُّ

---

(1) مصطفى الشكعة، ص 733.

مصدراً جغرافياً له قيمته في دراسة جغرافية القطر المصري واقتصاده، ومحصولاته الزراعية خلال الفترة التي عاش فيها المقريزي.

6 ـ «تهذيب التهذيب» و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني: والموسوعة الأولى تقع في أثني عشر مجلداً، تتحدث عن رجال الحديث، والثانية تقع في خمسة مجلدات، وهي تراجم للعلماء الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري.

7 ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي: وتقع هذه الموسوعة في اثني عشر مجلداً، وهي موسوعة تاريخية تقف عند حوادث سنة 841 هجرية.

8 ـ «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: وتقع هذه الموسوعة في أثني عشر مجلداً، وتترجم للعلماء والأدباء وغيرهم ممن عاشوا في القرن التاسع الهجري.

وقبل ظهور هذه الأعمال الموسوعية الكثيرة التي ظهرت في العصر المملوكي، ظهرت عدة أعمال موسوعية أخرى لا تقل شأناً أو ضخامة عن الأعمال الموسوعية التالية، منها على سبيل المثال لا الحصر: «تاريخ دمشق أو مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» لابن عساكر التي تقع في أربعين مجلداً ضخماً، وكتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»لابن الجوزي، وهو موسوعة تاريخية ضخمة تقع في عدة مجلدات، وكتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير في أثني عشر مجلداً، وهو موسوعة تاريخية مرتبة على تسلسل السنوات حتى سنة 629 هجرية، بالإضافة إلى العملين الكبيرين لياقوت الحموي وهما: «معجم الأدباء» و«معجم البلدان»، وهما أشهر من أن يعرّف بهما أو يكتب عنهما.

إن التتبع التاريخي لنشأة حركة التأليف والوراقة ـ النشر ـ وتطورها في الحضارة الإسلامية وأثرها في ازدهار الآداب والعلوم يحتاج إلى عمل قائم بذاته حتى يفي الغرض منه. وما هذه الصفحات البسيطة إلاّ زهرة من بستان عظيم، ومفتاح لكنوز ثمينة لتراثنا الفكري الكبير.

obeikandl.com

■ 6 ■

المكتبات في الحضارة الإسلامية
أنواعها وخدماتها

نتيجة لحركة التدوين والترجمة والتأليف الكبيرة التي شهدها العالم الإسلامي، وانتشار مهنة الوراقة ودكاكين الوراقين في أغلب المدن الإسلامية الكبرى شرقاً وغرباً، وشَغَف المسلمين بالقراءة ومطالعة الكتب واقتنائها، انتشرت في ربوع الدولة الإسلامية المكتبات، أو خزائن الكتب كما كانت تسمى في ذلك الزمن، انتشاراً واسعاً، وعرفت الحضارة الإسلامية تقريباً معظم الأنواع المعروفة من المكتبات في وقتنا الحاضر، كالمكتبات العامة، والخاصة والمدرسية، والطبية، ومكتبات المساجد والمكتبات العلمية وغيرها. وكان للمكتبات الإسلامية دور فعال وعظيم في نشر العلم والمعرفة، وتوفير الأسباب لكل من يرغب في التزود من تلك المكتبات بالعلم الذي يميل إليه أو يتخصص فيه.

ويرجع الفضل في المقام الأول للاهتمام بإنشاء المكتبات والتوسع فيها إلى خلفاء الدولة العباسية الذين اهتموا بها وبذلوا الأموال لتكون المكتبات مؤسسات ثقافية علمية بالمعنى الكامل. والاهتمام بالكتب والمكتبات جاء نتيجة لتطبيق المسلمين أوامر وتوجيهات الدين الإسلامي الحنيف الذي يأمر بطلب العلم ويحض على التعلم، ويمدح العلماء والمتعلمين، ويجعلهم في مرتبة الأنبياء، وينفّر من الجهل والجهلاء ويدعو إلى أن يكون المسلم طالباً للعلم من المهد إلى اللحد. فالكثير من الآيات الكريمة تدعو المسلمين إلى طلب العلم والأخذ بأسبابه كقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على طلب العلم، كقوله ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وقوله: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»[1].

وقد قامت المكتبات الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي بالدور الذي أسست من أجله، وهو نشر العلوم والمعارف بين مختلف طبقات المجتمع المسلم آنذاك. ويسرت للمسلمين الاستفادة من الكتب القيمة التي كانت تحتويها في كل فن وعلم، ووفرت لمن لم تكن له قدرة على اقتناء الكتب الاطلاع على عشرات الآلاف من الكتب والمجلدات، سواء للقراءة أم الدراسة، أم لاستخدامها في التأليف والكتابة، أم غير ذلك، فكانت مؤسسات ثقافية علمية تعمل إلى جانب المؤسسات والمعاهد العلمية الأخرى على دفع حركة العلوم في المجتمع الإسلامي نحو التقدم والإبداع.

أنواع المكتبات الإسلامية:

1 ـ **المكتبات العامة:**

كان هذا النوع من المكتبات منتشراً في جميع المدن الإسلامية شرقاً وغرباً، قلما تخلو مدينة صغيرة أو كبيرة من مكتبة عامة. وكانت هذه المكتبات مفتوحة للجميع، ولا يمنع أحد من دخولها والاستفادة من محتوياتها، وكان الدخول إليها مجاناً، بل إن العديد منها كان يقدم الورق والحبر والأقلام للقراء الذين يحتاجون إلى هذه الأدوات أو المواد.

وكان الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وبعض الأغنياء يقومون ويتنافسون على تأسيس المكتبات العامة إما في أماكن وأبنية خاصة بها، أو تلحق أحياناً بمسجد

(1) انظر فصل الدعوة إلى العلم في الإسلام.

أو مدرسة. ويمكن اعتبار مكتبات الخلفاء مكتبات عامة حيث إنها كانت مفتوحة للجميع، تقدم خدماتها لعامة الناس وللعلماء على السواء. وكان بعض الخلفاء يهتم بمكتبته اهتماماً بالغاً، ويبذل لها كل ما يملك من وقت وجهد في سبيل تنمية مجموعاتها من الكتب كما فعل المأمون لبيت الحكمة في بغداد، والحَكَم في مكتبة الأمويين في قرطبة. وكانت المكتبات العامة الإسلامية منظمة تنظيماً دقيقاً، حيث كان لها موظفون يعملون على دفة أمورها، ومشرفون لتقديم الخدمات للقراء وتوفير أسباب الراحة لهم، ويرأس هؤلاء خازن المكتبة ـ أمين المكتبة ـ الذي يكون عادة من علماء عصره. وبها أيضاً المناولون الذين يناولون الكتب للمطالعين ويرشدون الناس إلى مصادر المكتبة المختلفة. وكذلك هناك النساخ الذين ينسخون الكتب بخط واضح وجميل. والمجلدون الذين يقومون بتجليد الكتب حفظاً لها من التمزق والتلف[1].

وكانت المكتبات تحتوي على نظام للإعارة الخارجية يمكّن القراء من استعارة ما يحتاجون إليه لقاء دفع ضمان مالي للكتب بالنسبة لعامة الناس، بينما يعفى العلماء من دفع هذا الضمان. وكان للمكتبات أيضاً ميزانية خاصة تنفق منها على احتياجاتها من الكتب وغيرها من الأدوات والمواد الأخرى ورواتب العاملين بها. وهذه الميزانية قد تكون مخصصة لها من الدولة أو من خلال الأوقاف التي توقف على المكتبة، أو ما يقدمه الأغنياء والعلماء الذين يؤسسون هذا النوع من المكتبات. وكان في بغداد وحدها أكثر من ثلاثين مكتبة عامة. وضمت مدن الأندلس أكثر من سبعين مكتبة عامة، بالإضافة إلى ما كان في مدن الشام ومصر وشمال أفريقيا.

ومن أشهر المكتبات العامة في التاريخ الإسلامي مكتبة «دار العلم» التي أسسها الوزير سابور بن أردشير عام 382 هجري بالكرخ في بغداد، وأوقف عليها أوقافاً كبيرة، وجلب إليها الكتب المختلفة بلغت حوالي عشرة آلاف مجلد أغلبها بخط

(1) مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا. ط2. بيروت: دار الإرشاد، 1968، ص 164.

أصحابها[1]. وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهاراً كبيراً وبلغت شهرتها آفاق العالم الإسلامي فقصدها العلماء والأدباء من كل مكان للتزود من مناهلها والاستفادة من محتوياتها في مختلف العلوم والمعارف. وكان المؤلفون يسعون إلى إيداع نسخ من مؤلفاتهم فيها، وهو ما كان معروفاً في ذلك الوقت «بالتخليد»، الذي نسميه في وقتنا الحاضر «بالإيداع». ومنها مكتبة بني عمّار في طرابلس الشام التي أصبحت قصتها كالأسطورة التي يرددها الناس في أكثر الأوقات. وقد أسست هذه المكتبة في القرن الخامس الهجري بهدف نشر المذهب الشيعي في المنطقة. وقد زود بنو عمار مكتبتهم هذه بأنفس الكتب ونوادر المخطوطات التي جلبوها من بقاع متعددة من العالم الإسلامي. وكان النساخ يعملون بشكل مستمر لنسخ الكتب بها. وتذكر الروايات أنه كان بها أكثر من مائة وثمانين ناسخاً يتناوبون العمل في الليل والنهار، وأن أغلب كتب هذه المكتبة مجلدة ومزخرفة ومحلاة بالذهب والفضة بخطوط أشهر الخطاطين، وحوت عدداً كبيراً من الكتب بخط مؤلفيها. وكانت كتب هذه المكتبة في مختلف فروع العلم والمعرفة من فلسفة، وأدب، وتاريخ، وطب، وفلك.. إلخ. وذكرت بعض كتب التاريخ أن عدد الكتب بها بلغ ثلاثة ملايين مجلد[2]. وقيل إن معمل الورق الجيد الذي كان بطرابلس الشام ساعد على كثرة كتب مكتبة بني عمار.

ومن المكتبات التي جعلها أصحابها مفتوحة الأبواب لمن يطلب العلم مكتبة علي بن يحيى المنجم التي كانت مقصد الناس من كل مكان، فيقيمون فيها ويتعلمون منها العلوم المختلفة، بالإضافة إلى ما كان يقدم فيها من مساعدات أخرى كتقديم الورق والطعام للقادمين من بعيد. وكذلك المكتبة التي أسسها جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي في مدينة الموصل، وسماها «دار العلم»، ووقف الانتفاع بها على

---

(1) أبو الفرج عبد الرحمن علي ابن الجوزي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. بيروت: دار الثقافة [عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، 1359 هجرية]، ج8، ص 22 ـ 23.

(2) محمد كرد علي. خطط الشام. ط2. بيروت: دار العلم للملايين، 1972، ح6، ص 191.

كل طالب علم، ولا يمنع أحد من دخولها، وإذا كان معسراً يعطى الورق وغيره من الأدوات والمواد التي يحتاجها[1].

وكانت هناك مكتبات الخلفاء، وهي مكتبات اهتم خلفاء المسلمين بها وأسسوها حباً منهم لنشر العلم والمعرفة بين أفراد المجتمع الإسلامي كافة حتى يحصل الجميع على الكتب، وينال كل فرد قسطه من الثقافة. وقد استفاد المسلمون ـ الذين لم يستطيعوا توفير المال اللازم لشراء الكتب بسبب ارتفاع ثمنها ـ من هذه المكتبات التي حوت كل الكتب التي كانت متوافرة في ذلك الوقت، فكانت مكتبات الخلفاء مكتبات شبه عامة يستفيد منها الخليفة وحاشيته، ويستفيد منها العلماء والأدباء وبقية أفراد المجتمع. ومن أشهر هذه المكتبات في التاريخ العلمي والثقافي للإسلام مكتبة «بيت الحكمة» في بغداد التي أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد، وبلغت قمة مجدها في عهد الخليفة المأمون الذي اهتم بها اهتماماً منقطع النظير، وأصبحت مثلاً يحاكيه الحكام والأمراء في بقاع العالم الإسلامية المختلفة. وقد كانت «بيت الحكمة» أشبه بجامعة أو مؤسسة علمية عالمية؛ فهي لم تكن مجرد مكتبة عادية، بل كانت مركزاً للعلم والثقافة ومنتدى للعلماء والأدباء، ومكاناً للبحث والدراسة للباحثين والدارسين، ومركزاً كبيراً من مراكز الترجمة في العالم الإسلامي، ترجم فيها وبواسطتها العديد من كتب الفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها من العلوم الأخرى من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، لتكون تحت تصرف القراء والباحثين والعلماء من أجل البحث والدراسة والمطالعة، ومكاناً لنسخ الكتب، يعمل فيه الناسخون على توفير الكتب لتكون تحت أيدي من يرتاد المكتبة للاستفادة من محتوياتها.

وكان يعمل في الترجمة بهذه المكتبة العظيمة ألمع المترجمين وأشهرهم في ذلك الوقت مثل حنين بن إسحاق، ويوحنا بن ماسويه، ويوحنا بن البطريق. وكان يعمل بها عدد من الذين اشتهروا بالعلوم خاصة الفلك والرياضيات.. إلخ مثل أبناء موسى

(1) ياقوت الحموي. معجم الأدباء. القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، [د.ت]، ج7، ص193.

بن شاكر، الذين تولوا رئاسة أقسام العلوم الرياضية والهندسة والنجوم والحيل (الميكانيكا) والموسيقى، وعمر بن فرحان الطبري الذي تولى رئاسة أحد أقسام الترجمة، وكان من المشهورين في علم النجوم وحركاتها، ترجم وألف عدداً من الكتب في هذه المجالات والمواضيع[1]، وعلان الشعوبي الذي كان راوية عارفاً بالأنساب، وكان يعمل ناسخاً بهذه المكتبة في عهد الرشيد وابنه المأمون[2]. ويروي البعض أنه كان مسؤولاً عن قسم النسخ بالمكتبة. ومن بين الذين كانوا يعملون ببيت الحكمة سهل بن هارون الذي تذكر بعض الكتب أنه تولى رئاسة المكتبة. وباختصار فقد اجتمع في مكتبة «بيت الحكمة» نخبة عظيمة من العلماء والأطباء والفلكيين وغيرهم، ترجموا العديد من الكتب التي تبحث في شتى العلوم والفنون والمعارف الإنسانية، فحوت كل نادر وغريب، وبلغ عدد كتبها ما لا يحصى كثرة، ووجد فيها طلاب العلم والعلماء والمؤلفون خير معين وأجلّ مكان يطلبون منه ما يرغبون فيه من العلوم المختلفة التي تعبر عن تقدم الإنسان عبر الحضارات المتعاقبة، وما تضيفه الإنسانية إلى تجاربها وخبراتها في كل حضارة ناشئة. وقد انتهى أمر هذه المكتبة العظيمة بدخول التتار بغداد وتخريبها، فوضعت كتبها في نهر دخلة لتعبر عليها خيول الهمج المغول فذهبت معالمها وانتهت نهاية أليمة، ودمر أعظم مركز علمي ثقافي عرفته البشرية في ذلك الزمان[3].

ومن هذا النوع أيضاً مكتبة «دار العلم» التي أنشأها خلفاء الدولة الفاطمية في مصر عام 395هـ 1004م، وجعلوا فيها الكتب المنوعة والنادرة التي تمتاز بجودة الخط وجمال التجليد ودقة الزخرفة، وقدر أن عدد كتبها بلغ حوالي مليون وستمائة ألف

---

(1) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي. تاريخ الحكماء. بغداد: مكتبة المثنى [عن طبعة يوليوس ليبرت، لايبزغ 1903]، ص 242.

(2) ابن النديم. الفهرست. بيروت: دار المعرفة، 1978، ص 154.

(3) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963، ص 466.

مجلد، ومحفوظة في أربعين خزانة. وأبوابها مفتوحة لجميع الناس حيث كان يدخلها من يرغب في القراءة و من يريد أن ينسخ، أو من يريد أن يتعلم. وكان القراء يُحَصّلون الحبر والورق والأقلام مجاناً. ومن الذين تولوا رئاسة هذه المكتبة الكبرى أبو نصر هبة الله بن موسى الشيرازي الملقب بالمؤيد في الدين، حيث تولى رئاستها في زمن الخليفة المستنصر (427 ـ 487هـ ـ 1035 ـ 1094م). وكان داعي دعاة الدعوة الفاطمية، وله فيها محاضرات بلغ عددها حوالي ثمانمائة محاضرة أو مجلس، جمعت في ثمانية مجلدات كبيرة تناولت قضايا وموضوعات متعددة ومختلفة في المذهب الإسماعيلي من الناحية الدينية والسياسية والأدبية. وقد انتهت هذه المكتبة الكبيرة بنهاية الدولة الفاطمية بموت آخر الخلفاء الفاطميين العاضد عام 567هـ ـ 1171م تقريباً[1]. ومن هذا النوع أيضاً مكتبة الخلفاء الأمويين في الأندلس التي أسسها الخليفة الحَكَم المستنصر في قرطبة، واهتم بها اهتماماً عظيماً لم يشابهه اهتمام أي حاكم أندلسي آخر بمكتبته، لأن الحَكَم كان محباً للعلوم، مكرماً لأهلها، جماعة للكتب على اختلاف أنواعها. وقد بعث الحكم الرسل إلى جميع أقطار العالم الإسلامي لشراء الكتب وجلبها إلى مكتبته في قرطبة، فكان يبذل لهم الأموال من أجل ذلك، حتى جلبوا من الكتب إلى الأندلس ما لم يعهده أهلها من قبل[2]. وجمع الحَكَم في هذه المكتبة من النُّسَاخ والمَهَرة في الضبط والإجادة في التجليد عدداً كثيراً. وقد بلغ عدد الكتب بها حوالي أربعمائة ألف مجلد. وكانت المكتبة منظمة تنظيماً جيداً، واحتوت على عدد من الفهارس بلغ عددها أربعة وأربعين فهرساً، في كل فهرس عشرون ورقة مبين فيها أسماء الكتب فقط[3]. وكانت هذه المكتبة الضخمة محط أنظار العلماء وطلاب العلم من أقاليم الأندلس المختلفة ومن بعض دول غرب

(1) سعيد الديوه جي. بيت الحكمة. ط2. بغداد: دار الكتب للطباعة والنشر، 1972، ص 47.

(2) أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. القاهرة: المكتبة التجارية، 1949، ج1، ص461.

(3) نفس المصدر، ص685.

أوروبا أيضاً. ووفد إليها الكثير من الطلاب الأوروبيين للنهل من معينها والتزود من العلوم التي احتوتها. وكان لها دور بارز في نشر العلم العربي في دول غرب أوروبا كإيطاليا وفرنسا وغيرها. وكان مصير هذه المكتبة فاجعاً، ذلك أن المنصور بن أبي عامر الذي تولى أمر الأندلس بعد وفاة الحَكَم بفترة أخرج منها كل كتب الفلسفة وكتب علوم الأوائل وأحرقها في ميدان قرطبة العام حتى يرضى العامة والفقهاء في زمانه. وبعد وفاة المنصور أخرجت الكتب الباقية وبيعت، ونهب ما تبقى من ذلك عند دخول البربر إلى قرطبة[1].

2 ـ المكتبات الخاصة :

المكتبات الخاصة هي المكتبات التي يملكها الأفراد في بيوتهم، ويكون استخدامها مقصوراً عليهم أو على بعض أصدقائهم أو أفراد أسرهم. وقد انتشرت المكتبات الخاصة في الحضارة الإسلامية في كلّ أرجاء الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، وحرص معظم المسلمين على اقتناء مجموعات كبيرة من الكتب، خصوصاً الأمراء والوزراء والأغنياء والعلماء وغيرهم، ممن كانت لهم قدرة على شراء الكتب. وعلى الرغم من أن هذه المكتبات تخص ـ كما ذكرنا ـ أفراداً معينين بذلوا أموالهم في سبيل تأسيسها والاستفادة من العلوم التي احتوتها كتبها، فإن كثيرين منهم فتحوا أبوابها للجمهور ولعامة الناس ممن يرغبون في التزود من المعارف والعلوم المختلفة، حتى إن بعضهم أطلق عليها اسم المكتبات الخاصة العامة، ولا نريد التوسع في الحديث عن هذا النوع أو حصره؛ لأن ذلك يحتاج إلى وقت وجهد، ولكن ذكر الأمثلة يبقى أمراً ضرورياً.

ومن أشهر المكتبات الخاصة مكتبة علي بن يحيى المنجم التي سبق ذكرها، ومكتبة الفتح بن خاقان التي جمعها له علي بن يحيى المنجم وجمع فيها من كتب الحكمة ما لم يجتمع في مكتبة أخرى مثله. وكان الفتح بن خاقان أحد الذين

(1) نفس المصدر، ص 363.

اشتهروا في التاريخ الإسلامي بحب الكتب والقراءة، حتى إنه عندما كان يحضر مجلس الخليفة المتوكل ويقوم المتوكل لحاجة له، يخرج الفتح من كمه أو خفه كتاباً يقرؤه إلى حين عودة المتوكل إلى المجلس[1] وكانت هذه المكتبة تحتوي على عدد كبير من الكتب. قال عنها ابن النديم أنه لم ير أعظم منها كثرة وحسناً[2]، ومكتبة القاضي أبي المطرف قاضي الجماعة في قرطبة (توفي عام 402هـ) وقد جمع فيها من الكتب في أنواع العلوم ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه بالأندلس. وكان لأبي المطرف ستة وراقين ينسخون له الكتب بشكل دائم. وكان متى علم بكتاب جيد عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه ويبالغ في ثمنه. وكان لا يعير كتاباً من أصوله إلى أحد، وإذا سأله أحد من الناس وألح عليه في استعارة كتاب أعطاه لأحد الناسخين فينسخه ويعطيه للمستعير. وبعد وفاته اجتمع أهل قرطبة لبيع مكتبته فأخذت عاماً كاملاً، وجمعوا من ثمنها أربعين ألف دينار[3].

ومن بين المكتبات الخاصة بعلماء المسلمين وفلاسفتهم مكتبة الفيلسوف العربي الكندي المعروفة باسم «الكندية». وكان الصاحب بن عباد يملك مكتبة ضخمة، حيث كان من كبار عشاق ومحبي الكتب ومن المشهورين بجمعها واقتنائها، ولم تذكر كتب التاريخ عدد ما كانت تحتويه من كتب، ولكنها قدرت بحمولة أربعمائة جمل من كتب العلم فقط[4].

ومن الأطباء المسلمين الذين اهتموا بجمع الكتب وتحصيلها والاعتناء بها وكونوا مكتباتهم الخاصة، الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك الذي كان من العلماء الأفاضل في مصر، وكان محباً للعلم، خاصة الطب، واقتنى كتباً كثيرة

---

(1) ابن النديم، ص169.

(2) نفس المصدر.

(3) ابن بشكوال. كتاب الصلة. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، جـ 1، ص 310.

(4) ياقوت الحموي. معجم الأدباء. ج6، ص 168 وما بعدها.

حتى أصبحت عنده مكتبة ضخمة من المؤلفات الطبية وغير الطبية. وكان يرى أن أهم ما يملكه في حياته هو هذه الثروة من الكتب[1]، وكذلك الطبيب العربي الشهير ابن رضوان الذي كان يملك مكتبة خاصة ضمت العديد من الكتب في الطب وغيره من العلوم الأخرى. وحوت مكتبة ابن الزفان في مصر أكثر من عشرين ألف مجلد أغلبها من الكتب الطبية[2]. وخلف الطبيب القيرواني ابن الجزار ما يزيد عن خمسة وعشرين قنطاراً من الكتب الطبية وغير الطبية، وكان عظيم العناية بالكتب حريصاً على جمعها وتحصيلها[3]، وكان لموفق الدين بن المطران همة عالية في تحصيل الكتب حتى بلغ عدد الكتب التي جمعها في مكتبته الخاصة ما يقارب عشرة آلاف مجلد بالإضافة إلى الكتب التي كان ينسخها، حيث كان لديه ثلاثة ناسخين ينسخون له في مكتبته بشكل دائم. وقد بيعت مكتبة ابن المطران بعد وفاته لأنه لم يخلف ولداً تؤول إليه المكتبة[4]. ومن الذين كانوا يملكون مكتبات خاصة ضخمة الصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد، الذي كانت مكتبته تحتوي على أكثر من عشرين ألف مجلد في كل العلوم والفنون. وقد امتلك ابن الدخوار الطبيب المشهور بدمشق وصاحب المدرسة الطبية المعروفة باسمه عدداً كبيراً من كتب الطب منها ما كان ينسخه بيده. وهناك آلاف الأسماء التي تحفل بها كتب التاريخ الإسلامي من الذين اهتموا بجمع الكتب والعناية بها، وامتلكوا مكتبات خاصة غنية بما حوته من كتب العلم والأدب والفلسفة والتاريخ وغيره. وما ذكرناه ما هو إلا على سبيل المثال.

---

(1) موفق الدين بن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1965، ص 560.

(2) نفس المصدر، ص 568.

(3) سليمان بن حسان ابن جلجل. طبقات الأطباء والحكماء. تحقيق فؤاد السيد. القاهرة: مؤسسة الخانجي، 1955، ص 90.

(4) موفق الدين بن أبي أصيبعة، ص 655.

3 ـ مكتبات المدارس :

أصبحت المدارس مراكز للتعليم بعد المساجد والكتاتيب، وظهرت في وقت كثرت فيه حلقات الدرس والنقاش في المسجد، مما أفقد المسجد كمكان للعبادة جلاله ووقاره، فبحث المسلمون عن بديل له، فأسسوا المدارس لتكون مكاناً للتعليم يتعلم فيه الفرد كل العلوم الدينية والدنيوية. والمدرسة نشأت كمؤسسة تعليمية منظمة في أواخر القرن الرابع الهجري وتطورت وانتشرت بعد ذلك في مدن العالم الإسلامي عامةً. وقد ألحقت بالمدارس مكتبات يستخدمها طلاب العلم والأساتذة في البحث والدراسة والتحصيل ويعتمدون عليها في الاستزادة من العلوم. وقلما خلت مدرسة من مكتبة بها مجموعة من الكتب صغيرة أو كبيرة، تبعاً لمكانة المدرسة ومقدار ما يعود عليها من مال الوقف الموقوف عليها من الدولة أو من مؤسس المدرسة أو صاحبها. ومن بين المدارس الكبرى التي احتوت على مكتبة ضخمة «المدرسة النظامية» التي زودت بكل غريب ونادر. وكانت هذه المكتبة محط أنظار طلاب العلم والدارسين، فكانوا شديدي العناية بها، حتى إنه لما شبّت النار في الأماكن المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد، وانتقل الحريق إلى المدرسة فاحترقت المكتبة، ولكن الكتب نجت من الحريق بفضل همة الأساتذة والطلاب وغيرهم، الذين نقلوها قبل أن تصل النار إليها[1]. وكان كثير من العلماء يوقفون كتبهم على مكتبة المدرسة النظامية. فقد أوقف العلامة محب الدين بن النجار مؤلف كتاب (ذيل تاريخ بغداد) ما قيمته ألف دينار من كتبه، وكان ذلك في النصف الأول من القرن السابع الهجري[2] وقد ذكرت بعض المصادر أن عدد كتب هذه المكتبة بلغ حوالي ستة آلاف كتاب. وقد شغل منصب أمين المكتبة عدد من العلماء والأدباء منهم الإسفراييني الشاعر الأديب، ومحمد بن أحمد الأبيوردي صاحب المؤلفات الكثيرة.

---

(1) أبو الفرج عبد الرحمن علي بن الجوزي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج9، ص 184.

(2) أبو الفداء الحافظ بن كثير. البداية والنهاية. ط3. بيروت: مكتبة المعارف، 1980، ج13، ص 169.

ومن مكتبات المدارس الأخرى أيضاً مكتبة «المدرسة المستنصرية» التي أنشأها المستنصر بالله، واكتمل بناؤها سنة 631 هجري. وقد نقل إليها من الكتب النفسية والأصول المضبوطة التي احتوت على جميع العلوم والربعات الشريفة مائتين وتسعين حملاً، بالإضافة إلى ما نقل إليها بعد ذلك من كتب أخرى[1]. وكانت المكتبة من أهم الأقسام في هذه المدرسة، وهذا يدل على مكانة المكتبة في المؤسسة التعليمية. وتذكر بعض الروايات أن الكتب التي نقلت إلى المكتبة يوم افتتاحها بلغت ثمانين ألف مجلد من الكتب النفسية أكثرها بخطوط منسوبة إلى خطاطين مشهورين. وقد كانت هذه المكتبة محل إقبال ومرجعاً لطلاب العلم والعلماء والباحثين من خارج المستنصرية، وقصدها الكثيرون وأفادوا من كنوزها العلمية والأدبية مدة تزيد على قرنين من الزمان. ومن بين الذين تولوا أمانة مكتبة المدرسة المستنصرية المؤرخ ابن الغوطي صاحب كتاب «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة»، وكان قد شغل منصب أمين مكتبة مرصد مراغة قبل أن يتولى أمانة مكتبة المدرسة المستنصرية وهو الذي قال في هذه المكتبة بأنها لم يوجد مثلها في العالم، وأنها كانت أعظم من مكتبة مرصد مراغة التي بلغ عدد الكتب بها حوالي أربعمائة ألف مجلد[2]. وأوقف الظاهر بيبرس على المدرسة الظاهرية مكتبة جليلة اشتملت على أمهات الكتب في كل العلوم والفنون. وكذلك حوت المدرسة المنصورية، التي أسسها السلطان المنصور قلاوون بالقاهرة لتدريس المذاهب الأربعة والحديث والطب، مكتبة نفيسة كان فيها عدد كبير من الكتب في أنواع العلوم وقفها السلطان قلاوون وغيره[3]. وكان بالمدرسة الصاحبية،

---

(1) عبد الرحمن سنبط قنيتو الإربلي. خلاصة الذهب المسبوك. تصحيح مكي السيد جاسم. بغداد: مكتبة المثنى [د. ت]، ص 288.

(2) ابن حجر العسقلاني. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. بيروت: دار الجيل، [د. ت]، ج2، ص 364.

(3) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي. الخطط المقريزية. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، [د. ت]، ج2، ص 380.

التي أسسها الصاحب صفي الدين عبد الله بن شكر في القاهرة بسويقة الصاحب للمالكية وتدريس النحو خزانة كتب للطلاب والأساتذة بالمدرسة.

وكان هناك عشرات المدارس التي ضمت مكتبات صغيرة أو كبيرة كانت توضع تحت تصرف الطلاب والأساتذة، ومن هذه المدارس نذكر المدرسة الطيبرسية والمدرسة الحجازية، والمدرسة المنكوقرية، والمدرسة المحمودية التي وصفها المقريزي بأنها من أحسن مدارس مصر وبها خزانة كتب الإسلام من كل فن، ولا يعرف في مصر مكتبة مثلها[1]، ومدرسة الجاي، ومدرسة الأمير جمال الدين، وغيرها من مدارس القاهرة[2]، والمدرسة البشرية، والمدرسة المجاهدية، ومدرسة سيدي خان العباسي، ومدرسة قاسم العباسي، ومدرسة مراد خان في بغداد[3]، ومدارس دمشق الكثيرة، ومدارس طرابلس الشام، وشمال أفريقيا والأندلس.

لقد انتشرت المكتبات المدرسية أو مكتبات المدارس بإنشاء المدارس نفسها في معظم المدن الإسلامية، وكان معظمها إن لم يكن جميعها، محتوياً على مكتبات لغرض استخدام الطلاب والأساتذة. وألحق كثير من الأمراء والسلاطين مكتبات بعدد كبير من المدارس، فقد ألحق نور الدين زنكي بالمدرسة النورية في دمشق مكتبة، وكذلك فعل معظم سلاطين وأمراء وحكام الدولة الإسلامية، كما فعل ذلك أيضاً بعض الأغنياء الذين أسسوا مدارس ليتعلم فيها أبناء المسلمين العلوم الدينية والدنيوية، فكانت المدارس بمكتباتها مؤسساتها تعليمية يتعلم فيها الطلاب صنوف العلم والمعرفة؛ حتى يصلوا إلى أعلى المراتب في كثير من العلوم والآداب والفنون. وقد اشتهرت بعض المدارس بعدد من الأساتذة والعلماء الذين كانوا يلقون فيها الدروس المختلفة في العلوم والآداب كالفلسفة والنحو والطب والفلك والهندسة.. إلخ فكانت تقوم بالمهمة التي تقوم بها الجامعات في عصرنا الحاضر تماماً.

---

(1) نفس المصدر، ص 395.

(2) انظر نفس المصدر، ص 363 ـ 405.

(3) انظر: كوركيس عواد. خزائن الكتب القديمة في العراق. ط2. بيروت: دار الرائد العربي، 1986.

بالإضافة إلى الأنواع السابق ذكرها من المكتبات وجدت أنواع أخرى من خزائن الكتب في المساجد، التي تذكر كتب التاريخ أنها من أول أنواع المكتبات التي عرفت في الإسلام. وربما كان السبب في وجود المكتبات في المساجد، أن المساجد كانت تتخذ أماكن للدارسة قبل ظهور المدارس، حيث إن الدراسة لابد لها من الكتب، وهذه الكتب لم تكن ذات طبيعة فقهية فقط، بل ضمت كتب الفلسفة والعلوم والآداب الأخرى، وهي العلوم التي كانت تدرّس في المساجد ويحتاج الدارسون فيها إلى مراجع يرجعون إليها للتحصيل والاستزادة منها، حتى إن بعض المساجد ازدهر ازدهاراً كبيراً، وأصبح من المراكز الفكرية والتعليمية بحيث كان يجتذب إليه طلاب العلم من كل أرجاء العالم الإسلامي كما كان الحال في المسجد الأموي بدمشق، ومساجد مكة والمدينة المنورة، والجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع المنصور في بغداد، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس بالمغرب، والجامع الكبير في قرطبة ومساجد وجوامع طليطلة وغرناطة وغيرهما.

وقد اعتاد الكثير من العلماء والفقهاء وغيرهم أن يوصوا بكتبهم كوقف على المساجد في المدن الكبرى التي كانوا يعيشون فيها، وبذلك كانت مكتبات تلك المساجد تنمو بشكل دائم ومستمر. وكثيراً ما كانت تسمى مجموعة الكتب الموقوفة على المسجد باسم صاحبها. وكان الخلفاء والملوك والأمراء أيضاً يوقفون الكتب على المساجد كما فعل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي وقف عدداً من المصاحف على جامع ابن طولون، وأوصى بعدد من الكتب للجامع الأزهر.

وعرفت الحضارة الإسلامية المكتبات الطبية التي أُلحقت بالمستشفيات، لغرض استفادة الأطباء وطلاب الطب من المعلومات التي تضمها. وقد اهتم المسلمون بالمستشفيات اهتماماً كبيراً ونظموها تنظيماً جيداً، وكانت مفتوحة لجميع الرعايا أغنياء وفقراء على السواء. وكانت الخدمات الطبية تقدم فيها على أعلى المستويات ويعمل بها أشهر وأمهر الأطباء في كل الأمراض.

وكان بالمستشفى، بالإضافة إلى كونه مكاناً للعلاج، مكان للدراسة، حيث كانت تلقى فيه المحاضرات والدروس الطبية على الطلاب الراغبين في تعلم وممارسة مهنة الطب والمداواة. ومن بين المستشفيات التي كانت تحتوي على مكتبة طبية البيمارستان النوري[1] الذي أسسه نور الدين زنكي في دمشق، حيث أوقف نور الدين مجموعة كبيرة من الكتب الطبية وضعت في خزانتين.

ويذكر المقريزي في خططه أن البيمارستان المنصوري الكبير الذي أسسه السلطان منصور قلاوون في القاهرة كانت به مكتبة طبية[2]، وقدر البعض أن هذه المكتبة كانت تضم حوالي مائة ألف مجلد أكثرها جُلِبَتْ من دار الحكمة بالقاهرة.

لقد كانت المكتبات الإسلامية بجميع أنواعها العامة والخاصة، المدرسية، والطبية وغيرها، مؤسسات ثقافية علمية حرصت على تقديم كل ما يحتاجه روادها من كتب ومواد المعلومات التي كانت معروفة في ذلك الوقت، وخدماتها كانت متنوعة من خدمة القارئ العادي الذي يأتي للمكتبة للمطالعة والاستمتاع بالقراءة، إلى القارئ المتخصص في علم من العلوم يبحث عن الجديد من الكتب في تخصصه، إلى الباحث الذي يستخدم المكتبة في بحوثه ومؤلفاته، وهذه هي خدمات ومهام أنواع المكتبات المختلفة في عصرنا الحاضر.

---

(1) بيمارستان معناها مستشفى أو مكان للاستشفاء.

(2) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، ح2، ص 407.

obeikandl.com

■ 7 ■

مراكز العلم والثقافة في الحضارة الإسلامية

- مكة المكرمة:

أصبحت مكة المكرمة بعد وفاة الرسول ﷺ مقصد الدارسين الذين كانوا يفدون إليها من كل مكان للتعرف على كثير من الأمور والقضايا الدينية. ففي مكة كان المسلمون يتعرفون على أسباب نزول القرآن الكريم، والتفسير، وجمع الحديث ودراسته، واستنباط الأحكام، لأن أهل مكة والمدينة كانوا أعلم الناس في هذه القضايا والمواضيع، وما يخص الحياة الدينية. ومن هنا فقد كانت مكة مركزاً هاماً من مراكز علوم الدين الإسلامي في صدر الإسلام. وقد اشتهر الكثير من العلماء فيها مثل مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعمر بن دينار وغيرهم.

- المدينة المنورة:

وتاريخ المدينة المنورة ـ أو مدينة الرسول، أو يثرب أو طيبة ـ ودورها في خدمة الإسلام معروف للجميع. أما من حيث مكانتها العلمية والثقافية فقد تم فيها جمع القرآن الكريم في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق، أولاً، ثم في عهد الخليفة عثمان بن عفان ثانياً وظهر فيها علم جديد هو «علم القراءات» وله مدارس متنوعة وأساتذة مشهورون وطلاب يتعلمون أصوله، كما اشتهر فيها أيضاً علم التفسير ـ تفسير القرآن الكريم ـ على أيدي صحابة رسول اللهﷺ مثل: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن مسعود. وفيها كذلك ظهر علم الفقه واستنباط الأحكام الشرعية. ثم بدأ في المدينة تدوين الحديث الشريف، ومن أعلام المدينة

المنورة وعلمائها الإمام البخاري والإمام مسلم، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وأحد أشهر الأئمة الأعلام، وغيرهم كثيرون[1].

- البصرة والكوفة:

وقد اشتهرت البصرة والكوفة بعلوم اللغة، وكانت كل منهما تنافس الأخرى في ذلك، وكان لهما دور كبير في تقدم علوم اللغة العربية، وفي تنمية الخط العربي. وقد تميزت الكوفة والبصرة كمراكز للثقافة والعلوم العربية والإسلامية منذ القرن الأول الهجري، إلا أن كثيراً من علمائهما قصدوا بغداد بعد إنشائها في القرن الثاني حيث أصبحت عاصمة الخلافة الإسلامية. وقد فقدت البصرة أهميتها كمركز ثقافي في القرن الثالث بسبب ما نشب فيها من ثورات وما سببته هذه الثورات من دمار وتخريب[2].

- بغداد:

بعد استقرار العباسيين بدأت الحركة العلمية تأخذ مكانها وتنمو وتزدهر، وأصبحت بغداد قبلة الأدباء والعلماء وطلاب العلم يفدون عليها من كل مكان، وتم تأسيس دور العلم، وعظم شأن المدينة بفضل تشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والمشتغلين بالعلم، فكان أن قدمت بغداد أعظم علماء العرب والمسلمين الذين كانوا رواد الحركة العلمية والفكرية في العصور الوسطى في كل العلوم، ونشطت بها حركة الترجمة - كما رأينا، وأسست بها أكاديمية «بيت الحكمة»، وأقيمت فيها مجالس العلم وحلقات النقاش والدرس.

وأقيم ببغداد، بأمر الخليفة المأمون، المرصد الفلكي الذي أشرف عليه نصير الدين، وزود هذا المرصد بكل الآلات اللازمة لرصد الكواكب وحركات النجوم، وكان له دور كبير في تقدم علم الفلك.

---

(1) محمد الحسيني عبد العزيز. الحياة العلمية في الدولة الإسلامية. كويت: وكالة المطبوعات، 1973، ص 17.

(2) ملكة أبيض. التربية والثقافة العربية - الإسلامية في الشام والجزيرة. بيروت: دار العلم للملايين، 1980، ص 487 - 488.

أما المكتبات ـ التي كانت تعد من المؤسسات العلمية الهامة ـ فقد كانت على اختلاف أنواعها ـ كما سبق ـ العامة والخاصة، والمدرسية، والطبية وغيرها. وكانت غنية بالكتب في كل العلوم والآداب والفنون، وأشهرها على الإطلاق «بيت الحكمة» الذي يعتبر «أول مكتبة علمية ذات شأن في العالم الإسلامي، ولعله أول جمعية علمية يجتمع فيها العلماء للبحث والدراسة»[1].

ويعتبر عصر الخليفة المأمون أزهى وأعظم عصور العلم العربي والإسلامي، إذ كان المأمون نفسه من رجال العلم، وكان من أكبر مشجعي العلم والعلماء، فكان قصره يموج بجموع أهل العلم والأدب والشعر، إلى جانب علماء الطب والفلاسفة الذين كانوا يستدعون من مناطق مختلفة لعقد الندوات والمجالس العلمية التي كان لها أثر كبير في ازدهار العلوم في الحضارة الإسلامية وتقدّمها.

ومن بغداد ظهرت المؤلفات العلمية التي ساهمت في نشر العلم العربي والإسلامي في مختلف الآفاق، وفيها عاش أعظم علماء العرب والمسلمين أمثال: حنين بن إسحاق، ويوحنا بن ماسويه، والرازي، والكندي، والخوارزمي، والجاحظ، وأبناء موسى بن شاكر، وابن النديم، وثابت بن قره، وعلي بن العباس، وابن التلميذ، وابن بطلان، والأصفهاني، وغيرهم كثير.

ومن بغداد بدأ بناء وتأسيس المدارس النظامية التي انتشرت فيما بعد في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، وساهمت في تعليم وتخريج مئات العلماء العرب والمسلمين، الذين عملوا على نشر العلم والثقافة في أرجاء البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، ومن أشهر هذه المدارس «المدرسة النظامية» أول هذه المدارس، التي أسسها نظام الملك، و«المدرسة المستنصرية»، التي أسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة 631 هجرية. ويروى عن ابن جبير أنه رأى في بغداد حوالي ثلاثين مدرسة، لكل واحدة منها بناء عظيم، ولهذه المدارس أوقاف كثيرة ينفق منها على العلماء

(1) محمد الحسيني عبد العزيز، ص 59.

والمدرسين والطلبة الذين يطلبون العلم فيها[1]. ومن بين العلوم التي كانت تدرس في المدرسة المستنصرية «علم الأصول والفروع.. وعلم القوافي وأحاديث الرسول.. والفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحات وعلم الطب ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان..»[2]. وقد أسهمت هذه المدرسة وغيرها من المدارس الأخرى في بغداد في نشر الثقافة العربية والإسلامية وتقدم الحضارة الإنسانية، حيث نظمت الدارسة فيها «على أساليب علمية دقيقة كما عودت الطلاب على البحث ومواصلة الدراسة وتفهم المسؤولية الملقاة على عاتقهم في نشر التراث الإسلامي»[3]. وكان يفد إلى هذه المدارس الطلاب من كلّ أرجاء العالم الإسلامي للتزود منها بأحدث العلوم في ذلك الزمن.

- القاهرة:

قبل بناء مدينة القاهرة في مصر على يد الفاطميين، كانت مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص عام 21 هجرية عقب فتح مصر، هي المركز العلمي والثقافي في مصر. وكان المسجد العتيق/ مسجد الفسطاط/ مكاناً للعبادة والعلم معاً. وكانت تعقد في هذا المسجد حلقات الدرس والنقاش. وقد مر المسجد العتيق أو مسجد عمرو بن العاص أو تاج الجوامع، كما كان يسمى، بالعديد من التوسعات والإضافات والإصلاحات منذ إنشائه مروراً بالعهد الأموي والعباسي وحتى عهد صلاح الدين والظاهر بيبرس وما بعدهما[4]. وكثرت به حلقات الدرس والعلم حتى

---

(1) نقلاً عن: أحمد محمد الملا. أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية. ط2. دمشق: دار الفكر، 1981، ص 58 (هامش).

(2) عبد الرحمن سنبط قنيتو الإربلي. خلاصة الذهب المسبوك. تصحيح مكي السيد جاسم. بغداد: مكتبة المثنى [د. ت]، ص 287.

(3) محمد الحسيني عبد العزيز، ص 65.

(4) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي. كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ الخطط المقريزية. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، [د. ت]، ج2، ص 246 ـ 25.

بلغت في سنة 749 هجرية أكثر من أربعين حلقة. ويقال إن الإمام الشافعي كان يدرس في زاوية من زوايا المسجد عرفت فيما بعد بزاوية الإمام الشافعي، رضي الله عنه. وبقي هذا الجامع مكاناً للتعليم حتى بعد بناء الجامع الأزهر بوقت طويل.

الجامع الأزهر: وهو أول مسجد أسس بمدينة القاهرة، بناه جوهر الصقلي قائد جيوش الفاطميين. وقد بدأ في بنائه عام 359 هجرية، واستمر البناء لمدة عامين حيث تم الانتهاء منه واكتمل عام 361 هجرية. وظل الجامع الأزهر موضع اهتمام من طرف جميع الأمراء والسلاطين الذين حكموا مصر حتى هذا الوقت، وكان الغرض من بنائه كما تشير بعض المصادر التاريخية - «إقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في ذلك العهد. . وكانت علوم الأزهر في أول أمره قاصرة على الفقه وعلوم الدين، ثم دخلت فيه الرياضيات والنجوم وبعض العلوم الطبيعية. على أنها لم تكن بالشيء المهم وإنما كانت أهمية الأزهر قائمة على العلوم الإسلامية واللغوية»[1]. ويعتبر الجامع الأزهر ثاني جامعة إسلامية أخذت على عاتقها منذ إنشائها نشر الثقافة العربية والإسلامية، يفد إليها طلاب العلم من مناطق مختلفة، يتعلمون على أيدي علماء أفاضل وشيوخ لهم مقدرتهم وكفاءتهم العلمية والأدبية. وكان يقوم بالتدريس فيه علماء في مختلف التخصصات التي كانت تدرس به، مثل الطبيب والمؤرخ عبد اللطيف البغدادي الذي كان يلقي درساً في الطب في كل يوم، بالإضافة إلى عدد كبير من عباقرة العلم العربي والإسلامي وعدد كبير من الأدباء المشهورين. وكان لكل طائفة من الطلاب رواق خاص بهم كرواق المغاربة (طلاب المغرب العربي) ورواق الشام. . إلخ، فكانوا يقرأون القرآن ويدرسونه ويلقنونه ويشتغلون بأنواع العلوم المختلفة من فقه وحديث وتفسير ونحو. . وغير ذلك من العلوم الأخرى[2]. وقد تخرج في

---

(1) جرجي زيدان. تاريخ آداب اللغة العربية. ط2. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1978، مج2، ص 377.

(2) المقريزي، ح2، ص 276.

هذه المؤسسة العلمية الكبرى عدد من مشاهير العلماء والأدباء منهم القلقشندي، والمقريزي والسيوطي والبلقيني والحوفي وغيرهم. ولا يزال الأزهر يقوم بدوره الهام في نشر الثقافة الإسلامية والعلوم إلى يومنا هذا. وقد كان، كما ذكرنا، محل اهتمام جميع الأمراء والحكام الذين توالوا على حكم مصر، فكان كل مرة يتم تجديده وتوسيعه والعناية به وإمداده بما يحتاج إليه للقيام بدوره المطلوب. وفي العصر الحديث تم إضافة عدد من الكليات إلى الجامع الأزهر - جامعة الأزهر - منها كلية أصول الدين والشريعة، واللغة العربية، بالإضافة إلى كلية الطب وكلية الهندسة.

كذلك كان بالقاهرة العديد من المؤسسات العلمية الأخرى التي كان لها أثر في تطوير الحركة العلمية كالمكتبات الضخمة والمدارس المختلفة، والمراصد الفلكية. فقد اشتهرت «دار العلم» التي كانت بمنزلة أكاديمية علمية احتوت على مكتبة تعتبر من أعظم المكتبات التي وجدت في الحضارة الإسلامية، وكذلك «دار الحكمة» التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة 395 هجرية، «وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القرّاء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت الدار وزخرفت.. وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس - على طبقاتهم - مما يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها»[1]. وقد ذكر المقريزي في «خططه» أنه وجدت في القاهرة وضواحيها حوالي أربعة وسبعين مدرسة منها على سبيل المثال: المدرسة القطبية، والمدرسة الفاضلية، والمدرسة الصالحية، والمدرسة المنصورية.. إلخ.

---

(1) المقريزي، ج1، ص 458.

وقد ازدهرت الحركة العلمية والثقافية في القاهرة مما حدا بكثير من علماء المشرق والمغرب إلى الذهاب إليها خاصة بعد سقوط بغداد والأندلس. وقد وجد أولئك العلماء كل الدعم والتشجيع من حكام وأهل مصر، فكان أن اجتمع بها من علماء العرب والمسلمين ما لم يجتمع في غيرها من المدن الإسلامية الأخرى في ذلك الوقت.

ومن القاهرة ظهرت الموسوعات العلمية والأدبية في مختلف العلوم والفنون والآداب مثل: موسوعة «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري، وموسوعة «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي، وموسوعة «لسان العرب» لابن منظور وغير ذلك من المؤلفات الموسوعية القيمة الأخرى. ومن الذين وفدوا إلى القاهرة من علماء الشعر والأدب الشاعر أبو تمام، والشاعر العربي الكبير المتنبي، ومن علماء الدين الإمام الشافعي، والإمام الغزالي، وكذلك وفد إليها العلامة العربي الكبير عبد الرحمن بن خلدون، والمؤرخ والطبيب عبد اللطيف البغدادي. ومنذ إنشائها والقاهرة تحمل لواء الثقافة العربية والإسلامية حتى وقتنا هذا.

- دمشق:

ودمشق تعتبر من أقدم مدن العالم، وقد فتحت عام 14 هجرية. وقد حفلت دمشق، مثل غيرها من المدن العربية والإسلامية الأخرى، بمؤسسات العلم والثقافة من مساجد ومدارس ومكتبات. ومن أشهر هذه المؤسسات «الجامع الكبير» أو الجامع الأموي الذي أصبح بعد بنائه منتدى للمسلمين يتلقون فيه أصول الدين، ويتعلمون فيه كثيراً من العلوم الأخرى. ويعد الجامع الكبير من المساجد الإسلامية الكبرى في تاريخ الإسلام، وكان قبلة للعلماء والدارسين، يأتون إليه من كل مكان ليتعلموا على أيدي علماء لهم مكانتهم، وأئمة لهم شهرتهم، وفحول الأدباء من أئمة المسجد وشيوخه الذين وهبوا أنفسهم لنشر اللغة العربية والدين الإسلامي طلباً لمغفرة الله وكسباً لرضاه»[1]. وظل الجامع الكبير يساهم في حفظ اللغة العربية

(1) محمد الحسيني عبد العزيز، ص 127.

والحضارة الإسلامية حتى العصر الحديث، حيث انطلقت منه الدعوى إلى تحرير البلاد السورية من الاحتلال الفرنسي، وتخرج فيه العديد من علماء الشام وغيره.

وكانت بدمشق إبان فترة الحضارة الإسلامية العديد من المدارس التي كانت تعلم العلوم المختلفة، وقد ذكرت بعض المصادر أن عدد هذه المدارس حتى العهد الأيوبي بلغ ثلاثاً وتسعين مدرسة، ويعتبر العصر الأيوبي في دمشق من أكثر العهود اهتماماً بالإكثار من المدارس[1]. ومن بين هذه المدارس التي كان لها دور بارز في العلم والثقافة والتربية في دمشق المدرسة النورية التي أسسها السلطان نور الدين زنكي (511 ـ 569هـ) والمدرسة العصرونية التي أسسها قاضي قضاة الشام شرف الدين عبد الله بن عصرون (492 ـ 585 هجرية)، والمدرسة الأسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه أحد قادة نور الدين زنكي، والمدرسة الصلاحية التي أسَّسها السلطان صلاح الدين الأيوبي (532 ـ 589 هجرية)، ومن المدارس المتخصصة المدرسة الدخوارية التي كانت تدرس علوم الطب، ومؤسس هذه المدرسة هو مهذب الدين عبد الرحمن بن علي بن حامد المعروف بالدخوار، وكان من أئمة عصره في صناعة الطب وإليه انتهت رياسة هذه الصناعة، ولد عام 465 هجرية وتوفي رحمه الله عام 628 هجرية. أما المدرسة فقد أسست عام 621 هجرية. وكان من العلماء الذين تخرجوا في هذه المدرسة ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، ونجم الدين اللبودي، وعلاء الدين بن النفيس الطبيب المشهور، وغيرهم. بالإضافة إلى عشرات المدارس الأخرى[2].

وحفلت دمشق بعدد كبير من المكتبات التي كان لها أثر كبير في نشر الثقافة والعلوم بين الناس، فوجدت مكتبات المسجد التي كانت ذات صبغة دينية، ومكتبات المدارس، والمكتبات العامة، ومكتبات الأمراء الخاصة، وكان لكل مكتبة كبرى من

---

(1) حسن شميساني. مدارس دمشق في العصر الأيوبي. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983، ص 49.

(2) لمزيد من التفاصيل انظر: حسن شميساني.

هذه المكتبات عدد من الأفراد يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها وصيانتها، وتقديم الخدمات المكتبية لمن يتردد على هذه المكتبات من قراء وطلاب وغيرهم.

وحركة الترجمة التي ازدهرت في الحضارة الإسلامية خلال العصر العباسي، خاصة أيام هارون الرشيد وابنه المأمون، بدأت بوادرها من دمشق على يد خالد بن يزيد (توفي عام 85 هجرية) وهو حفيد معاوية بن أبي سفيان ويلقب بالحكيم. وكان على قدر كبير من الفطنة والذكاء، فلما زهد في أمر تولي الخلافة انصرف إلى الاشتغال بالعلم، خاصة صناعة الكيمياء (الصنعة)، فلما أتقنها أمر بترجمة الكتب اليونانية، التي كانت موجودة في مدرسة الإسكندرية، إلى اللغة العربية، فكان خالد «أول من ترجم له كتب الطب والنجوم، وكتب الكيمياء»[1]. كذلك ترجم الطبيب اليهودي ماسرجويه كتاباً في الطب للقس أهرن بن أعين من السريانية إلى العربية زمن الدولة الأموية، وهو الكتاب الذي بقي في خزائن الكتب، حتى أخرجه الخليفة عمر بن العزيز حينما رأى أنه يمكن للمسلمين الانتفاع به[2]. وهكذا كانت دمشق من المراكز العلمية والثقافية الأولى التي شهدتها الحضارة الإسلامية، واستمرت في عطائها حتى بعد انتقال عاصمة الخلافة الإسلامية إلى بغداد على أيدي العباسيين.

مراكز الثقافة في المغرب العربي:

في المغرب العربي اشتهرت عدة مراكز للتعليم والثقافة العربية الإسلامية من أشهرها:

1 - القيروان: كانت القيروان مركزاً هاماً من مراكز العلم والثقافة العربية والإسلامية في شمال أفريقيا. وقد أسس هذه المدينة القائد عقبة بن نافع سنة 51 هجرية لتنطلق مها الفتوحات الإسلامية إلى المغرب والأندلس. وبنى عقبة في هذه

---

(1) ابن النديم. الفهرست. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1978، ص 497.

(2) ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان). طبقات الأطباء والحُكَماء. تحقيق فؤاد سيد. القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص 61.

المدينة الجامع المعروف بجامع عقبة، أو الجامع الكبير وجعله ثكنة ومدرسة ومسجداً للصلاة، على الرغم من أن بعض المؤرخين يرى أنه كان ثكنة ومدرسة أكثر منه جامعاً[1]. واستمرت القيروان مركزاً ثقافياً كبيراً حتى عام 555 هجرية حيث انتقل التعليم إلى جامع الزيتونة بمدينة تونس العاصمة. وبعد تأسيس الدولة الأغلبية التي اتخذت من القيروان عاصمة لها أصبح «جامع القيروان كعبة العلم بالديار المغربية والأندلسية وصقلية وسردانية ومالطة وبعض سواحل إيطاليا.. وكان فيه جناحان للتعليم، جناح للرجال، وجناح للنساء»[2]. وكان من بين الذين قاموا بالتدريس في جامع القيروان العلامة سحنون وابنته، حيث كان سحنون يعلم الرجال وابنته تعلم النساء.

وحينما تولى الإمارة زيادة الله الثالث ابن الأغلب أسس بجوار الجامع «بيت الحَكَمة» وجعل به مكتبة علوم وآداب وفنون، وجمع فيها أمهات الكتب ونوادر المخطوطات في كل العلوم ومن مختلف الأقطار، وألحق بها قسماً لترجمة الكتب عن «اللاتينية والبربرية... وجعل بها قسماً آخر لتعليم الطب فاستقلت مدرسة الطب الإفريقية بزعامة أحمد بن الجزار في تصانيفها وتعليمها وتعاليمها»[3]. وقد برز في القيروان عدد من العلماء في مجالات العلوم الإسلامية المختلفة، بالإضافة إلى ظهور بعض الشخصيات التي اشتهرت في مجال العلوم الطبيعية والتجريبية مثل الطبيب القيرواني المعروف ابن الجزار الذي يصفه ابن جلج بقوله: «طبيب ابن طبيب... وله في الطب تواليف عجيبة. وكان من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم. وله تواليف غير الطب، كتأليفه التواريخ وتأليفه كتاب

---

(1) عثمان الكعاك. محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب. القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، 1958، ص 13.

(2) نفس المصدر، ص21.

(3) نفس المصدر، ص 22.

الفصول والبلاغات . . ولم تحفظ عليه بالقيروان زلة قط ، ولا أخلد إلى لذة»[1] .

ومن أشهر مؤلفات ابن الجزار في الطب كتابة «زاد المسافر وقوت الحاضر» الذي ترجم إلى اللاتينية والإيطالية والعبرية واليونانية ، وانتشر انتشاراً سريعاً واستفاد منه أهل الطب في أوروبا فائدة عظيمة . وقد ترجم قسطنطين الأفريقي «زاد المسافر» في القرن الحادي عشر الميلادي إلى اللغة اللاتينية ، ولكنه ـ كعادته ـ لم ينسب الكتاب لصاحبه بل نسبه لنفسه . وقد طبعت هذه الترجمة عدة مرات ، في ليون عام 1510 ، وبال (سويسرا) عام 1516 ، وكذلك في ليون مرة أخرى عام 1530 ، ميلادية ، ومرة ثانية ببال عام 1536م[2] . وكانت بالقيروان مدرسة طبية اشتهر من علمائها ومعلميها عدد من الأطباء منهم إسحاق بن عمران ، الذي كان «طبيباً حاذقاً مميزاً بتأليف الأدوية المركبة ، بصيراً بتفرقة العلل ، أشبه الأوائل في علمه وجودة قريحته . . ألف كتباً منها كتابه المعروف بنزهة النفس ، وكتابه في داء المالخونيا لم يسبق إلى مثله ، وكتابه في الفصد ، وكتابه في النبض»[3] . وكان من بينهم أيضاً الطبيب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي المصري الذي سكن القيروان وكان ملازماً لإسحاق بن عمران .

2 - **جامع الزيتونة**: كان هذا الجامع منذ تأسيسه على يد الوالي عبد الله بن الحجاب عام 114 هجرية/ 732 ميلادية ، معهداً علمياً يُدرَّس فيه العلوم الدينية وغيرها من العلوم الأخرى . وهو رابع جامع أسس في بلدان شمال إفريقية ، حيث كان مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط عام 13 هجرية ، وجامع الناقة بطرابلس ،

---

(1) ابن جلجل ، ص 88 ـ 89 .

(2) ابن الجزار . زاد المسافر وقوت الحاضر . تحقيق محمد سويسي والراضي الجازي . تونس : الدار العربية للكتاب ، 1986 ، ص 20 (من مقدمة المحقق) .

(3) ابن جلجل ، ص 85 .

وجامع القيروان أو جامع عقبة بن نافع بالقيروان الذي تم بناؤه عام 51 هجرية، وجامع الزيتونة بتونس الذي، كما ذكرنا، أسس عام 114 هجرية[1].

وبالإضافة إلى العلوم الدينية، كانت تدرس بجامع الزيتونة علوم اللسانيات (اللغة)، والعلوم الرياضية والطبيعة والطب. وحول هذا الجامع أو المؤسسة العلمية وجدت «أسواق تتعلق بمهمة التعليم وهي سوق الكتبيين (الوراقين)، وسوق السفارين (المجلدين) ومجموعة مدارس لمبيت الطلبة. وفي الجامع مكتبة أسسها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وأضاف إليها من جاء بعده من الأمراء المراديين أو الحسينيين، فتجمع فيها نحو 25 ألف مخطوط منها المفرد ومنها النادر ومنها النفيس»[2]. وفي عهد أبي زكريا الحفصي أصبح الزيتونة المعهد العلمي الأول في أفريقيا في أوائل القرن السابع الهجري وجلب إليه الأساتذة من طرابلس أمثال عبد الحميد بن أبي الدنيا، ومن صقلية مثل آل الصقلّي الأطباء، ومن الأندلس مثل أبي عصفور النحوي وابن سعيد، وابن الأبّار المؤرخين، وحازم القرطاجني وابن أبي الحسين الأديبين، وابن القصار والبطرني الفقيهين[3]. وقد تخرج في هذه المؤسسة العلمية العديد من علماء إفريقية، نذكر منهم على سبيل المثال العلامة عبد الرحمن بن خلدون الغني عن تعريفنا. وجامع الزيتونة الآن جامعة عصرية يضم العديد من الكليات، ككلية أصول الدين واللغة العربية وغيرها.

---

(1) أنور الرفاعي. تاريخ الفن عند العرب والمسلمين. ط2. دمشق: دار الفكر 1977، ص 71.

(2) نفس المصدر، ص 71 ـ 72.

(3) عثمان الكعاك، ص 101.

أحد مداخل جامع القرويين

3 - فاس: ومن أبرز معالم هـذه المدينـة العلميـة جـامع القرويـين الـذي أسسـته السيدة فاطمة الفهري فـي القـرن الثـالث الـهجري. وبمجـرد الانتـهاء مـن بنـاء الجـامع أصبح ملتقى ومنتدى لعـدد كبير مـن رجـال العلـم والتربيـة، وصـار بفضلـهم مركـزاً للاسترشاد، ثم تحول بعد ذلك إلى مركز ومؤسسة للتعليم ذات العلاقة بـأصول الفقـه وقواعد اللغة، وبالإضافة إلى بعض العلوم التـي لا يستغنى عنـها فـي الحيـاة العامـة. وبذلك أصبح جامع القرويين ـ جامعة القرويين ـ من المراكز العلمية الهامة التي كان لها أثر كبير في تطوير الثقافـة والعلـوم الإسـلامية فـي بلـدان المغـرب العربـي، وأصبحـت شهرته تنافس بعض المراكز العلمية الأخرى كالزيتونة، والقـيروان، والجـامع الأمـوي بدمشق وغيرها.

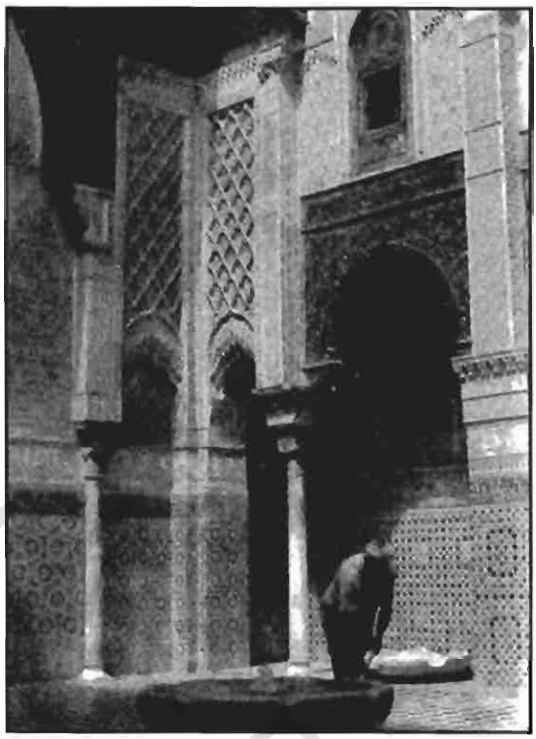

مدخل جامع القرويين بفاس

وفي عهد الدولة المرينية ظهر الاهتمام بالمدارس وتشجيع العلم وطلابه بكل الوسائل الممكنة، حيث أسست البيوت لإقامة الطلاب وضمان المسكن والملبس والمأكل من أجل التحصيل العلمي والجد في الدراسة. وفي هذا العصر ـ العصر المريني ـ تمّ إنشاء مكتبة جامع القرويين، وهي مكتبة علمية ذات قيمة كبيرة، وتم فتحها لغرض انتفاع الدارسين والباحثين وطلاب العلم من كنوزها، حيث زودت بأحسن الكتب وأندرها في جميع العلوم والمعارف من فقه وأصول وتفسير وحديث، وطب ورياضيات وفلك وفلسفة[1]. ولا تزال هذه المكتبة حتى وقتنا هذا قائمة،

(1) انظر: محمد عبد العزيز الدباغ. «خزانة القرويين ودروها الإيجابي في حفظ التراث ونشره». الناشر العربي، ع14، 1989، ص 147 ـ 150.

وتعتبر أحد المكتبات الغنية بالمخطوطات العربية في كل العلوم. وأنشأ السلطان أبو الحسن ابن أبي سعيد المريني عدداً من المدارس بفاس منها مدرسة الوادي، ومدرسة الصهريج، ومدرسة الرخام التي عرفت باسم مدرسة المصباح، نسبة إلى أول عالم يدرس فيها[1].

4 - مراكش: بالإضافات إلى جامعة القرويين في فاس، أسس أمراء المرابطين في عاصمتهم الجديدة مراكش عدداً من المؤسسات التعليمية التي دعت إليها حاجة الدولة إلى الأطباء والمهندسين وغيرهم، وكان من هذه المؤسسات الجامع الكبير الذي بناه يوسف بن تاشفين في مراكش، وجلب له العديد من العلماء الأندلسيين للتدريس فيه. وفي عام 514 هجرية تقريباً أسس علي بن يوسف بن تاشفين «الجامعة اليوسفية» لتكمل مسيرة التعليم في الجامع الكبير، وتدرس علوم الطب والصيدلة والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم الأخرى، وتعزز دور بقية المؤسسات الأخرى في المغرب الأقصى في نشر العلم والثقافة مثل: جامعة القرويين بفاس وجامعة سبتة ذات الاتجاه الأندلسي[2].

مراكز العلم والثقافة في الأندلس:

أنشأ العرب المسلمون في الأندلس، بعد فتحها، المدارس والمكتبات في كل مكان، وأقاموا في مدن البلاد المختلفة مؤسسات التعليم العالي (الجامعات) التي كانت وحدها مراكز الإشعاع العلمي في القارة الأوروبية لفترة طويلة من الزمن. وقد ساعد على كثرة الكتب ورواجها والاشتغال بتجارتها معامل الورق الموجودة في البلاد الأندلسية، التي من أشهرها معمل ورق «شاطبة»، وأصبحت مدن الأندلس تنشر العلم والثقافة لكل من يطلبها بقطع النظر عن اختلاف الملل والأجناس، فلا فرق بين أحد من البشر في النهل من معين العلم والثقافة آنذاك.

---

(1) هو الفقيه أبو الضياء مصباح بن عبد الله الياصلوتي.

(2) عثمان الكعاك، ص 47.

ومن بين المدن الأندلسية التي اشتهرت كمراكز للعلوم والثقافة والفنون والآداب ما يأتي:

1 - قرطبة:

هي درة مدن الأندلس وأشهرها وأكثرها علماً وثقافة، كانت، كما وصفت، «منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أولي الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنُّهى، وقلب الإقليم، وينبوعاً متفجراً للعلوم، وقبه الإسلام، . . . بها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة. . .»[1]. وقد بقيت قرطبة حاضرة العلم والثقافة في الأندلس مدة لا تزيد على ثلاثة قرون أو أكثر كانت خلالها أكثر، مدن العالم القديم نوراً وعلماً وحضارة، حيث شجع ملوكها وحكامها العلم والاشتغال به، وبالغوا في دعمه مادياً ومعنوياً، وحرصوا على دعوة العلماء من كل مكان، حتى غدت قصورهم أشبه بمجامع علمية، ومكتباتهم كأنها دور حكمة وعلم[2].

وقد وصل ازدهار قرطبة العلمي والثقافي قمته في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحَكَم الثاني (المستنصر بالله). وقد تولى عبد الرحمن الناصر الخلافة عام 300 هجرية حتى وفاته عام 350 هجرية، أي إن فترة حكمه كانت فترة طويلة استمرت خمسين سنة. وكان عبد الرحمن الناصر من المشهورين بحب الكتب واقتنائها، وبلغت شهرته في ذلك معظم أرجاء الدولة الإسلامية وأوروبا حتى بيزنطة، حتى إن أجمل وأطيب الهدايا التي كان يتلقاها كانت الكتب. وقد اهتم عبد الرحمن الناصر بالعلم والأدب اهتماماً عظيماً، وقصده العلماء من كل مكان، وأصبح قصره قبلة الأدباء وكعبتهم. وفي عهده أسس في قصره مكتبته الكبرى التي

---

(1) أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت: دار صادر، 1968، مج1، ص 461.

(2) محمد كرد علي. الإسلام والحضارة العربية. ط3. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة للنشر، 1968، ج1، ص 260.

عدها بعض المؤرخين إحدى أكبر ثلاث مكتبات عرفتها الحضارة الإسلامية. فكانت من أعظم خزائن الكتب وأشهرها في الأندلس وخارجه.

أما الخليفة الحَكَم الثاني ـ المستنصر بالله ـ الذي تولى الخلافة عقب وفاة أبيه عام 350 هجرية، فكان عالماً بأمور الدين، وله معرفة كبيرة بالتاريخ، ملماً بمعرفة الأنساب، وكان من أكثر ملوك الأندلس اهتماماً بالعلم ونشره ودعمه. وقد وصفته أغلب مصادر تاريخ الأندلس بأنه كان «حسن السيرة، جامعاً للعلوم، محباً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من ملوك الأندلس قبله»[1]. وكان الحَكَم يبعث الرسل إلى مختلف الأقطار لشراء الكتب، ويبذل في ذلك أموالاً كبيرة، ولا يبالي في دفع أعلى الأثمان للكتب. ومن الروايات التي تروى عن عشقه وحبه للكتب أنه لما سمع بأن الأصفهاني أخذ في تأليف كتابه «الأغاني» بعث إليه ألف دينار من الذهب العين لأجل الحصول على نسخة منه، فأرسل له الأصفهاني نسخة من الكتاب قبل أن يظهر في العراق. وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في كتابه الذي شرح فيه مختصر ابن عبد الحَكَم، وغيره من الأمثلة الأخرى[2]. وقد أسس الحَكَم الثاني في قرطبة أكثر من سبع وعشرين مدرسة كانت تعلم أبناء المسلمين، خاصة الفقراء مجاناً. ويروي المؤرخون أنه أثناء فترة ازدهار الحَكَم العربي في الأندلس ـ خاصة عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحَكَم الثاني ـ كان جميع أهل الأندلس يعرفون القراءة والكتابة. وكان عصر الحَكَم الثاني أزهى عصر عرفته قرطبة والأندلس عامة، وبلغت فيه الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس قمة مجدها في السياسة والعلم معاً.

---

(1) ابن سعيد المغربي. المغرب في حلى المغرب. ط3. تحقيق شوقي ضيف. القاهرة: دار المعارف، 1978، ج1، ص 186.

(2) أحمد بن محمد المقري التلمساني، ص 385.

ومما زاد في انتشار الحركة الفكرية وازدهارها في قرطبة وغيرها، حب أهل الأندلس لاقتناء الكتب، وامتلاك المكتبات، وشغفهم بالقراءة وطلب العلم. وكانت قرطبة المركز الرئيسي لتجارة الكتب، وكان سوق الكتب بها أكبر سوق في المغرب والأندلس. وكانت معامل الورق تزود البلاد بما يحتاج إليه الوراقون للقيام بنسخ الكتب وتجليدها وبيعها للمواطنين الأندلسيين، حتى إن تجليد الكتب كان صناعة زاهرة مربحة تدر على أصحابها الكثير من الأموال. وكانت قرطبة تفاخر وتباهي بسوق كتبها، كما كانت أشبيلية تباهي بآلات الموسيقى التي تصنع فيها.

نافست مدينة قرطبة ـ بوصفها مدينة للعلم والمعرفة ـ بغداد، والقاهرة، والقيروان، ودمشق، وأصبحت عاصمة الحضارة العربية الإسلامية في إسبانيا وغرب أوروبا. وانتشرت بها مدارس الفلسفة والطب والعلوم الأخرى، والفنون المختلفة، وأصبحت قبلة للأدباء والشعراء والعلماء، يأتون إليها من كل مكان من العالم الإسلامي وغرب أوروبا للتعليم والبحث والدرس.

وحوت قرطبة عدداً من المستشفيات التي زخرت بعدد كبير من الأطباء البارزين والصيادلة، والكيميائيين وعلماء النبات، بالإضافة إلى علماء الرياضيات والفلك وغير ذلك.

أما جامعتها ومكتبتها فكانتا مركزين للعلم والترجمة، حيث نقل إليهما الكثير من كتب اليونان والهنود وغيرها إلى اللغة العربية. وتذكر المصادر التاريخية أن عدد مجلدات مكتبة قرطبة، أو مكتبة الزهراء كما كانت تعرف، بلغ أكثر من أربعمائة ألف مجلد، وكانت على قدر عظيم من التنظيم حيث إن فهرسها كان يتكون من أربع وأربعين كراسة في كل كراسة عشرون ورقة ذكرت بها أسماء أو عناوين الكتب فقط لا غير[1]. وفي هذه المكتبة الكبرى، وغيرها من المكتبات والمعاهد الأخرى، ترجمت المؤلفات العربية في الأدوية والطب والجراحة إلى

(1) نفس المصدر، ص 685.

اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية الأخرى، مثل كتاب «الأدوية البسيطة» لابن الوافد؛ الذي تُرْجِمَ حوالي خمسين مرة، وكتاب «الجراحة» لأبي القاسم الزهراوي: الذي بقي أساساً للتعليم الجراحي بأوروبا لعدة قرون، كما نقل إلى قرطبة وغيرها تراث اليونان عن الترجمة العربية[1].

جامع قرطبة الكبير

وكما سبق أن ذكرنا، كان حكام الأندلس، خاصة الحَكَم الثاني، يرسلون الرسل لاستجلاب الكتب من كل مكان في العالم القديم من مراكز العلم والثقافة في البلدان الإسلامية، حيث يعودون بأحدث المؤلفات في كل العلوم والفنون، بالإضافة إلى دعوة العلماء لزيارة قرطبة والإقامة فيها.

(1) عائشة عبد الرحمن. تراثنا بين ماض وحاضر. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1968، ص 27.

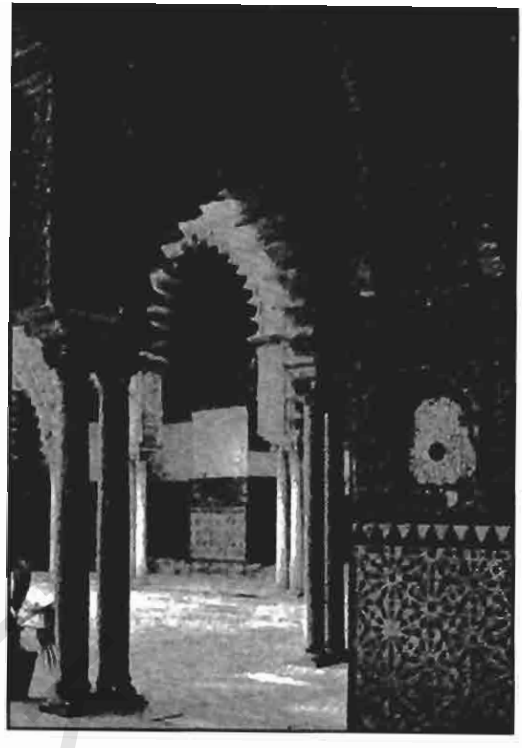

زخرفة معمارية عربية من أحد قصور إشبيلية

وكان جامع قرطبة الكبير من أكبر معاهد العلم فيها، وكان يدرس فيه أبرز العلماء والفقهاء. وقد قام هذا المسجد برسالته «كمركز مرموق للدراسات التقليدية العالمية في إسبانيا، وكان هذا الجانب من رسالته في أوج عظمته، وقمة مجده، شيئاً رائعاً يستحق التأمل والمشاهدة، مشهد الطلاب يتدفقون إلى دروسهم، عبر أبوابه التي تبلغ واحداً وعشرين، بعد انتهاء صلاة الفجر، وقد قدموا من مدن متنوعة، وفي ملابس أشد تنوعاً، يجتازون تلك الغابة من الأعمدة، ويكونون حلقاً حول الأساتذة»[1]. وعن عدد الطلاب بهذا المسجد العظيم يكفي أن نعطي مثلاً واحداً، حيث كان العالم ابن عائذ الطرطوسي يحتل عدة أماكن فيه، «وصوته لا يبلغ أسماع الألف شخص الذين تحلقوا حوله يودون سماع درسه، ومن ثم أخذ

(1) خوليان ريبيرا. التربية الإسلامية في الأندلس. ترجمة الطاهرة أحمد مكي. القاهرة: دار المعارف، 1981، ص 143.

بعضهم مكاناً مناسباً، ومهمته ترديد الكلمات التي يمليها الأستاذ حتى تبلغ نهاية الصفوف»[1]. وكانت ثلاث من المدارس السبع والعشرين التي أسسها الحَكَم الثاني تقع حول هذا المسجد. والنشاط التعليمي لم يكن مقصوراً على مسجد قرطبة، وبل كان هناك العديد من المساجد الأخرى في قرطبة تقوم بنفس الدور التعليمي، وإن كانت في مستوى أقل من مستوى التعليم في مسجد قرطبة. وكان الأطباء في عياداتهم يقومون بتعليم الطلاب الدروس الطبية وما يتصل بها.

وبرز في قرطبة عدد كبير من العلماء والأدباء والفلاسفة نذكر منهم على سبيل المثال، ابن حزم، وابن رشد، والطبيب العربي الكبير أبو القاسم الزهراوي، وغيرهم كثيرون. ويقال إنه كان بقرطبة ستمائة مسجد وثمانون مدرسة، وسبع عشرة مدرسة عليا، وعشرون مكتبة تضم آلاف الكتب[2].

2 - طليطلة:

هذه المدينة أيضاً احتلت مكاناً مرموقاً كمركز للتعليم، ونالت شهرة كبيرة، خاصة في ميدان الترجمة من العربية إلى اللاتينية، على طول العصور الوسطى، ورحل إليها علماء أوروبا ليدرسوا العلوم العربية في مجالات الفلسفة والطب والفلك وغيرها من العلوم الأخرى، وقد نقل أولئك العلماء العديد من الكتب العربية في شتى العلوم والفنون إلى اللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى ومن هذه الترجمات تعلمت أوروبا. وبرز من هذه المدينة عدد من العلماء والأدباء في مختلف ميادين العلم والأدب، منهم الأديب أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري الذي قيل فيه إنه مفخرة هذه المدينة، وكان أحد أعلامها في التاريخ والأدب والمؤلفات الرائعة التي تبهر الألباب[3]. ومنهم أبو مروان عبد الملك بن

---

(1) نفس المصدر.

(2) زيغريد هونكة. شمس العرب تسطع على الغرب. ط2. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1969، ص 499.

(3) ابن سعيد المغربي. ح2، ص 33.

حصن الذي كان من أعيان الوزراء وأعلام الكتاب والشعراء[1]. واستمرت طليطلة مركزاً ثقافياً وعلمياً هاماً حتى بعد سقوطها في يد الإسبان المسيحيين.

3 - إشبيلية:

وهذه المدينة، وإن اشتهرت بفنون الغناء والموسيقى والطرب، فإنها كانت مركزاً من مراكز العلم في الأندلس، وتحتل المرتبة الثانية بعد قرطبة فيما يتصل بالتعليم وحب اقتناء الكتب. فقد كانت غنية بمكتباتها وبعدد عشاق الكتب فيها. واشتهرت أيضاً «بسوق الكتب الذي كان قائماً بها، ونفقت شهرته فبلغت كل الأنحاء، وأصبح مهبط الأدباء بحثاً عن النسخ النادرة والطريفة»[2].

ومن إشبيلية خرج عدد من أشهر علماء الأندلس في مختلف فروع العلم والمعرفة، نذكر منهم على سبيل المثال القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الإشبيلي الذي قيل في حقه بأنه «لو لم ينسب لإشبيلية إلاَّ هذا الإمام الجليل، لكان لها به الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل»[3]. ومنهم النحوي اللغوي أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي الذي كان من الأئمة في اللغة العربية الذي ألف عدة كتب في اللغة والنحو وفروع الأدب المختلفة، وكان شاعراً كثير الشعر[4]. ومنهم الطبيب الفيلسوف أبو الصلت أمية بن أبي الصلت الذي كان واحد زمانه، وأفضل أوانه متبحراً في العلوم المختلفة، وصفه ابن أبي أصيبعة بقوله: «هو من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وغيرها من العلوم، قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء، وكان أوحد في العلم الرياضي متقناً لعلم الموسيقى وعمله، وكان

---

(1) نفس المصدر، ص 30.

(2) خوليان ريبيرا، ص 219.

(3) ابن سعيد المغربي، ح ا، ص 254.

(4) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. تحقيق فرانسيسكو كوديرا. مجريط [مدريد]: مطبعة روخس، 1884، ص 56.

لطيف النادرة، فصيح اللسان، جيد المعاني[1]. ومنهم الطبيب العربي الكبير ابن زهر صاحب كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» الذي يعد من أعظم كتب الطب في العصور الوسطى، ومنهم جابر بن أفلح الذي اشتهر في علم الفلك وألف كتاب «الهيئة» الذي ترجم إلى اللاتينية واخترع بعض الآلات في علم الفلك.

4 - غرناطة:

واحتلت أيضاً مركزاً مرموقاً بين مدن الأندلس الأخرى، وكانت أكثر مدن الأندلس اهتماماً بالمكتبات باعتبارها مراكز للعلم والثقافة، حتى قيل إنه كان بها حوالي سبعين مكتبة عامة. وفي هذه المدينة وجد أجمل المباني الإسلامية في الأندلس وهو «قصر الحمراء» الذي وصفه بعض المؤرخين بأنه «أحد مبتكرات عبقرية الإنسان العجيبة. . . وكل ما تستطيع عبقرية الإنسان أن تتخيله من روائع الفن قد اجتمع على هذه الصخرة الوعرة الأغدار، المحفوفة بشعب عميقة في موقع ممتاز وفريد»[2] ومن الألقاب التي سميت بها هذه المدينة لقب «دمشق الأندلس»، ووصفها البعض بقوله: «غرناطة وما أدراك، حيث أدارت الجوزاء وشاحها وعلّق النجم أقراطه، عقاب الجزيرة، وغرة وجهها المنيرة»[3] ويصفها مؤرخها ووزير بلاطها لسان الدين بن الخطيب في وقته بأنها «قاعدة الدنيا، وقرارة العليا، وحاضرة السلطان، وقبة العدل والإحسان، لا يعدلها في داخلها ولا خارجها بلد من البلدان، ولا يضاهيها في اتساع عمارتها، وطيب قرارتها، وَطَنٌ من الأوطان. ولا يأتي على حصر أوصاف جمالها، وعد أصناف جلالها، قلم البيان»[4].

---

(1) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1965، ص 501.

(2) جاك س. ريسلر. الحضارة العربية. ترجمة غثيم عبدون. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، [د. ت]، ص 272.

(3) ابن سعيد المغربي، ج2، ص 102.

(4) لسان الدين بن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. ط2. تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973، مج1، ص 93.

غرناطة. حدائق جنة العريف

ومن بين المؤسسات العلمية التي كانت في غرناطة «المدرسة اليوسفية» التي أسسها يوسف الأول عام 750 هجرية ونسبت إليه، وعرفت هذه المدرسة أيضاً بعدة أسماء أخرى منها «المدرسة العلمية» و «المدرسة النصرية»، وكانت في بداية أمرها مركزاً للعلوم الدينية واللغوية، ثم توسعت بحيث أصبحت تهتم بأكثر العلوم المعروفة في ذلك الوقت. وكان يقصد هذه المدرسة طلاب العلم من كلّ المناطق من داخل غرناطة وخارجها، ومن خارج بلاد الأندلس أيضاً كالمغرب. كذلك وفد عليها عدد من الأساتذة من المغرب مثل الفقيه ابن مرزوق، والكاتب عبد القادر بن

سوار المغربي وغيرهم. وكان الطلاب المتفوقون يحصلون على إجازة ـ شهادة علمية ـ تعطيهم حق تدريس مادة معينة أو كتاب معين[1]. ومن غرناطة برز العديد من العلماء والأدباء الذين كانت مساهماتهم في مجالات العلوم المختلفة من المساهمات التي كان لها دورها في تقدم العلوم وازدهارها في الحضارة الإسلامية، نذكر منهم على سبيل المثال فيلسوف الأندلس الكبير ابن باجة، ومحمد بن الرقاح المرسي الذي كان يشتغل بعلوم الرياضيات والهندسة ومارس الطب أيضاً وتوفي في غرناطة عام 715 هجرية، والفلكي أبو يحيى بن رضوان الوادي آشي، الذي ألّف قصيدة في علم الفلك سماها «المنظوم في علم النجوم»، ووضع رسالة في الأسطرلاب وتوفي عام 757 هجرية، ومحمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بابن السراج الذي كان طبيب بلاط بني الأحمر وهو من الأطباء الذين اشتهروا بحب الخير وعمله، وكان يعالج الفقراء مجاناً ويوزع أمواله على الفقراء، والشاعر والمؤرخ والطبيب أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري، الذي ألّف كتاباً وصف فيه الوباء الذي حل بالأندلس عام 749 هجرية، وسماه «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد». ولعل من أشهر أعلام غرناطة الكاتب والمؤرخ والأديب والطبيب والوزير لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» وغيره من المؤلفات الأخرى.

---

(1) يوسف شكري فرحات. غرناطة في ظل بني الأحمر. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982، ص 159 ـ 160.

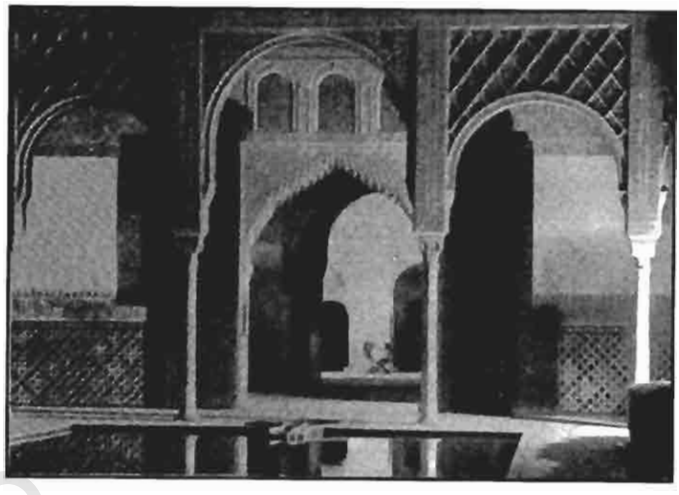

غرناطة. جانب من قصر الحمراء

بالإضافة إلى المراكز التي ذكرناها، فقد حفلت الأندلس بالعديد من المدن الأخرى التي كانت منارات للإشعاع العلمي الثقافي، كمدينة بلنسية التي كانت تعج بالمؤسسات العلمية والتعليمية والثقافية؛ كالمساجد والمكتبات ودكاكين الوراقين ومجالس العلم في قصور الخلفاء، وكانت لها علاقات علمية وصلات ثقافية مع مراكز العلم الأخرى كقرطبة وغيرها، واشتهرت بها العديد من العلوم؛ كالعلوم الشرعية وعلوم اللغة والأدب والعلوم التاريخية والعلوم التجريبية والفنون المختلفة[1]. ومنها أيضاً المرية، ومالقة، وبطليوس، وسرقسطة، ومرسية، وشاطبة. وجميع هذه المدن وغيرها مما لم نذكره كانت تحفل بأفواج العلماء والأدباء على اختلاف فئاتهم وطباقتهم.

بعد هذا العرض للمراكز العلمية والثقافية التي كانت تبدد ظلام الجهل وتنشر نور العالم والمعرفة من ربوع البلاد الإسلامية جميعها، وتمنح قبساً منه إلى بلدان أوروبا التي كانت تغط في نوم عميق، بسبب سيطرة الكنيسة والإقطاع، نود أن نشير

(1) انظر: كريم عجيل حسين. الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1976. (رسالة ماجستير من جامعة بغداد).

إلى أن هناك عشرات من المراكز الأخرى التي لم نتحدث عنها، لأن الحديث عنها يحتاج إلى وقت طويل ومجهود كبيرة، ويمكن أن نفرد لها أعمالاً خاصة بها، وهذه المراكز كانت منتشرة على امتداد العالم الإسلامي من أطراف الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً. فهناك كانت سمرقند، وبخارى، وحلب، وطرابلس الشام، والقدس، وطرابلس الغرب، وتلمسان وعنابة وصنعاء.. وغيرها من المدن التي كانت جزءاً من تاريخ الأمة الإسلامية العلمي والثقافي.

obeikandl.com